بسم الله الرحمن الرحيم

أزواج النبي ﷺ المذكورات في القرآن الكريم

بحث مقدم إلى مؤتمر

"فضائل الصحابة وآل البيت"

المنعقد بجمعية أهل السنة أنصار آل البيت والأصحاب

في الفترة: 7-2010/7/8م

إعداد:

الدكتور/ جمال محمود الهوبي

أستاذ التفسير المشارك

كلية أصول الدين – الجامعة الإسلامية بغزة

1431هـ - 2010م

ملخص البحث:

تناول هذا البحث بالحديث المفصل ثلاثة من أزواج النبي ﷺ ورد ذكرهن في القرآن الكريم، وهن: عائشة، حفصة، وزينب رضي الله عنهن .

وقد تناول البحث موضوع (أزواج النبي ﷺ) بالدراسة الموضوعية القرآنية، المبنية على: الاستدلال، التحليل، الاستنباط، الترجيح، ودقة الربط والعرض، والنتائج، إضافة إلى التوثيق العلمي الدقيق .

وقد فصل المبحث الأول الآيات التي ذكرت عائشة والملاحظات المستفادة منها، وترجمة عائشة، والتفسير الإجمالي لتلك الآيات والدروس المستنبطة منها، ثم تحدث المبحث الثاني عن حفصة، ثم المبحث الثالث عن زينت، ثم كانت الخاتمة التي اشتملت على أهم النتائج والتوصيات.

ABSTRACT

Wives of the Prophet Mohamed mentioned in the Quran

This research preferred to speak with details in the Koran, they are: Aisha, Hafsa, three wives of the Prophet and Zainab their blessings of God.

The discussion dealt with the (substantive study of the Qur'an, based on the subject) wives of the Prophet reasoning and analysis and extraction and weighting, the accuracy of connectivity and supply and results, in addition to scientific documentation of flour.

The first section speaks about the verses that said Aisha and observations learned, and the translation of Aisha, and interpretation of the total of those verses and the lessons derived from them, as well as the second topic, speaking about Hafsa, as well as the third section talked about the decorated, then the conclusion, which included the most important findings and recommendations.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ﷺ، أما بعد:

أولاً: أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث في الحديث المفصل عن ثلاث من نساء النبي ﷺ وهن: عائشة، فحفصة ثم زينب رضي الله عنهن، وذلك من خلال الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، وأقوال وتفسيرات جهابذة العلماء والمفسرين.

وبذلك يتعرف القارئ على ترجمتهن بإيجاز، وعلى الآيات التي نزلت فيهن وذكرتهن وعلى تفسيرها الإجمالي بعبارة عذبة رقيقة شيقة، وعلى الدروس المستنبطة والمستفادة منها بتعبير لطيف قاصد واضح.

ثانياً: أهداف البحث:

١ - نيل رضا الله ﷻ.
٢ - ذكر الآيات التي ذكرت فيهن نساء النبي ﷺ، والملاحظات المستفادة منها.
٣ - ترجمة موجزة موثقة لنساء النبي ﷺ عائشة فحفصة ثم وزينب رضي الله عنهن.
٤ - تفسير تلك الآيات تفسيراً إجمالياً، مع توضيح الدروس المستنبطة منها.
٥ - الدفاع عن نساء النبي ﷺ من كل من يحاول أن ينالهن بسوء.

ثالثاً: منهج البحث:

تناول الباحث موضوع (أزواج النبي ﷺ المذكورات في القرآن الكريم) بالدراسة الموضوعية القرآنية المبنية على: الاستدلال، التحليل، الاستنباط، الترجيح، دقة الربط، وضوح العرض، عذوبة وجمال التعبير، ولطافة وحلاوة الدروس المستنبطة ثم النتائج، إضافة إلى التوثيق العلمي الدقيق والكامل.

رابعاً: خطة البحث:

ولتحقيق هدف البحث وفائدته جعلته في ثلاثة مباحث ثم خاتمة ففهرس كما يلي:

المبحث الأول: عائشة زوج النبي ﷺ.

المبحث الثاني: حفصة زوج النبي ﷺ.

المبحث الثالث: زينب زوج النبي ﷺ.

الخاتمة: (أهم النتائج والتوصيات).

فهرس المصادر والمراجع.

المبحث الأول: (عائشة زوج النبي ﷺ).

المطلب الأول: الآيات التي ذكرت عائشة رضي الله عنها والملاحظات.

أولاً: الآيات التي ذكرت عائشة رضي الله عنها:

ورد ذكر عائشة رضي الله عنها في عشر آيات، تتحدث عن حادثة الإفك، حيت برأها الله ﷻ مما اتهمت به، روى البخاري بسنده إلى عائشة ﵂ قصة الإفك من أولها لآخرها إلى أن قالت: "فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ﴾ العشر آيات كلها..."(النور/11-20) [1].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

قال الفخر الرازي: "وأجمع المسلمون على أن المراد ما أُفك على عائشة"[2].

ثانياً: الملاحظات المستفادة من الآيات:

١ - إن هذه الآيات الكريمة وردت في سورة واحدة فقط، وهي سورة النور، وهي من السور المدنية التي تهتم بجانب التشريع.
٢ - إن هذه الآيات الكريمة بلغ عددها عشر آيات متتالية، وهذا يدل على فضل عائشة رضي الله عنها، إذ لم تحظ زوجة أخرى للنبي ﷺ بهذه الفضيلة.

(١) صحيح البخاري، ك65 (تفسير القرآن) بـ6 (لولايات سمعتموه...) 468/2، ح(4750).
(٢) التفسير الكبير 337/8.

٣ - إن هذه الآيات الكريمة لم يُصرح فيها باسم أم المؤمنين عائشة على طريقة القرآن، إذ لم يذكر اسم أي امرأة سوى مريم عليها السلام ولحكمة بالغة وهي: ليعلم الناس عامة والنصارى خاصة أن عيسى عليه السلام هو ابن مريم وليس ابن الله ﷻ كما يفترون.

٤ - إن هذه الآيات الكريمة برأ الله ﷻ بها عائشة زوج النبي ﷺ من إفك وافتراء وقذف المنافقين ومن جاراهم، وهل نريد شهادة على براءة عائشة رضي الله عنها بعد شهادة الله ﷻ؟!.

٥ - إن هذه الآيات الكريمة بين الله ﷻ فيها أن النيل من حرمة عائشة رضي الله عنها شيء عظيم، حتى أنه أمر المؤمنين عند سماع اتهامها أن يقولوا: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ (النور:16).

٦ - إن هذه الآيات الكريمة وما بعدها شهد الله ﷻ فيها ببراءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وبأنها مؤمنة ومحصنة وغافلة وطيبة وبريئة، ولها في الآخرة مغفرة ورزق كريم كما دل سياق الآيات بعد ذلك.

المطلب الثاني: التعريف بعائشة رضي الله عنها.

أولاً: نسب عائشة رضي الله عنها:

هي أم المؤمنين الصديقة عائشة رضي الله عنها بنت أبي بكر الصديق ﷺ زوج النبي ﷺ، وهي العربية القرشية، وأمها أم رومان من المهاجرات[٣].

ثانياً: زواج عائشة رضي الله عنها:

خطبها النبي ﷺ وهي بنت ست أو سبع سنين في مكة المكرمة قبل الهجرة، ثم بنى بها ودخل عليها وهي بنت تسع سنين في المدينة المنورة على رأس ثمانية أشهر من الهجرة، ثم توفي رسول الله ﷺ وعمرها ثمان عشرة سنة[٤].

وعائشة رضي الله عنها هي البكر الوحيد التي تزوج رسول الله ﷺ من بين سائر أزواجه الثلاثة عشر أو أكثر، وهي الثالثة في الترتيب زواجاً، حيث تزوجها النبي ﷺ بعد خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وسودة بنت زمعة رضي الله عنها.

(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير 91/8، والاستيعاب في معرفة الأصحاب 205/7.

(٤) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير 94/8، والمستدرك، للحاكم 4/4.

قالت عائشة رضي الله عنها: "تزوجني النبي ﷺ وأنا بنت ست سنين...(ودخل بي) وأنا يومئذ بنت تسع سنين"(٥).

ثالثاً: فضائل ومناقب عائشة رضي الله عنها:

١ - عائشة رضي الله عنها هي العربية القرشية بنت أبي بكر الصديق ﷺ أفضل الأمة بعد النبي ﷺ فهي خيار من خيار من خيار من خيار.
٢ - عائشة رضي الله عنها هي زوج رسول الله ﷺ أكرم مخلوق على الله ﷻ على الإطلاق.
٣ - عائشة رضي الله عنها هي البكر الوحيد والأصغر سناً التي تزوج رسول الله ﷺ.
٤ - عائشة رضي الله عنها تزوجها رسول الله ﷺ عن أمر الله ﷻ، لما روى عن عائشة أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "أُريتك في المنام ثلاث ليالٍ، جاءني بك الملك في سرقة من حرير(٦)، فيقول: هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك، فإذا أنت هي، فأقول: إن يك هذا من عند الله، يمضه"(٧).

(قلت): ومن المعلوم أن رؤيا الأنبياء حق وصدق ويقين وجزء من الوحي والنبوة.

٥ - عائشة رضي الله عنها أفضل نساء العالمين؛ لقوله ﷺ: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد(٨) على سائر الطعام"(٩)، "وقد استدل كثير من العلماء ممن ذهب إلى تفضيل عائشة على خديجة بهذا الحديث، قال: فإنه دخل فيه سائر النساء... المذكورات وغيرهن"(١٠)، ويؤيد هذا قول عائشة للنبي ﷺ عن خديجة رضي الله عنها: "قد أبدلك الله خيراً منها"(١١) وسكوته ﷺ على قولها وهو لا يسكت على باطل يدل على صدقها، قال الحافظ بن كثير:

(٥) صحيح البخاري، ك63 (مناقب الأنصار) ب44 (تزويج النبي ﷺ عائشة...) 256/2، ح (3894).
(٦) (سرقة من حرير): "أي في قطعة من جيِّد الحرير" النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير 362/2.
(٧) صحيح مسلم ،ك44 (فضائل الصحابة) ب13 (في فضل عائشة...) 1889/4-1890، ح (2438).
(٨) (الثريد): هو الطعام المتخذ من اللحم، والثريد أي: كِسَر الخبز، والمرق معاً.انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير 209/1، ومختار الصحاح، للرازي، ص 83.
(٩) صحيح البخاري، ك62 (فضائل الصحابة) ب30 (فضل عائشة...) 229/2، ح (3769).
(١٠) البداية والنهاية، لابن كثير 93/8.
(١١) صحيح مسلم، ك44 (فضائل الصحابة) ب13 (فضائل خديجة...) 1889/4، ح (2437).

"فأما ما يروى فيه من الزيادة "والله ما أبدلني الله خيراً منها" فليس يصح سندها"[١٢].

(قلت): ولعل تفضيل عائشة رضي الله عنها تميزها عن خديجة رضي الله عنها بنشر أحاديث النبي ﷺ والعلم الديني حيث كانت لا يفوقها في رواية الحديث إلا أبو هريرة رضي الله عنه.

٦ - عائشة رضي الله عنها هي الزوجة الوحيدة للنبي ﷺ التي كان ينزل الوحي عليه وهو في لحافها، قال ﷺ: "يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأةٍ منكن غيرها"[١٣].

٧ - عائشة رضي الله عنها الوحيدة التي رأت جبريل عليه السلام [١٤] كما أنه سلم عليها، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "قال رسول الله ﷺ يوماً: يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ترى ما لا أرى تريد رسول الله ﷺ "[١٥].

٨ - عائشة رضي الله عنها كانت عالمة بالدين وناشرة له في حياة النبي ﷺ وبعد موته وإلى موتها وذلك لقربها من النبي ﷺ ولذكائها ورجاحة عقلها وبركتها وتقواها، قال ابن كثير: "ومن خصائصها أنها أعلم نساء النبي ﷺ، بل هي أعلم النساء على الإطلاق..."، وقال عروة: "ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا طب ولا شعر من عائشة، ولم ترو امرأة ولا رجل غير أبي هريرة عن رسول الله ﷺ من الأحاديث بقدر روايتها"[١٦].

٩ - عائشة رضي الله عنها كانت أحب نساء النبي ﷺ إليه، روى البخاري عن عمرو بن العاص قال للنبي ﷺ: " أي الناس أحب إليك ؟ قال: (عائشة)، فقلت: من الرجال ؟ فقال: (أبوها) قلت: ثم من ؟ قال: (عمر بن الخطاب) فعد رجالاً"[١٧]، وروى مسلم عن عائشة قالت: "ما غرت على نساء النبي ﷺ إلا على خديجة، وإني لم أدركها، قالت: "وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول "أرسلوا بها إلى

(١٢) البداية والنهاية، لابن كثير 93/8.

(١٣) صحيح البخاري، ك62 (فضائل الصحابة) ب30 (فضل عائشة) 229/2-230، ح(3775).

(١٤) انظر: المستدرك، للحاكم، ك (معرفة الصحابة) ب (الصديقة بنت الصديق...) 7/4.

(١٥) صحيح البخاري، ك62 (فضائل الصحابة) ب30 (فضل عائشة) 228/2، ح (3768).

(١٦) البداية والنهاية 92/8، وانظر: المستدرك، للحاكم 11/4 وما بعدها.

(١٧) صحيح البخاري، ك62 (فضائل الصحابة) ب5 (في قول النبي ﷺ ...) 2/20 ، ح (3662).

أصدقاء خديجة"، قالت: فأغضبته يوماً فقلت: خديجة ؟ فقال رسول الله ﷺ: "إني رزقت حبها"[١٨].

(قلت): هذه الرواية تدل على أنه ﷺ قد رزق حب خديجة رضي الله عنها، والرواية السابقة تدل على أنه رزق حب عائشة رضي الله عنها أكثر على الإطلاق.

وقد عرف الصحابة رضي الله عنهم محبة النبي ﷺ الشديدة لعائشة رضي الله عنها، ولذلك كانوا يتحرون بهداياهم يومها، فعن عائشة "أن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة، يبتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ"[١٩].

١٠ ـعائشة رضي الله عنها " كان لها في القسم يومان، يومها ويوم سودة حين وهبتها ذلك تقرباً إلى رسول الله ﷺ "[٢٠].

١١ ـعائشة رضي الله عنها قبض رسول الله ﷺ في يومها في بيتها بين سحرها ونحرها وقد لامس ريقه ريقها، ودفن جثمانه الشريف ﷺ في غرفتها، فعن عائشة قالت: " إن كان رسول الله ﷺ ليتفقد يقول: "أين أنا اليوم ؟ أين أنا اليوم؟" استبطاءً ليوم عائشة، قالت : فلما كان يومي قبضه الله بين سَحْري[٢١] ونحري"[٢٢].

(قلت): وهذه الموافقات المباركة تدل على مكانة عائشة عند الله ﷻ وعند رسوله ﷺ.

١٢ ـعائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ في الجنة في أعلى درجات الجنة درجة الوسيلة والفضيلة، لقوله ﷺ: "عائشة زوجتي في الجنة"[٢٣]، ولما روي: أن عائشة قالت قلت: "يا رسول الله، مَنْ مِنْ أزواجك في الجنة ؟ قال: "أما أنك

(١٨) صحيح مسلم، ك44 (فضائل الصحابة) بـ13 (فضائل خديجة...) 1888/4، ح (2435).

(١٩) صحيح مسلم، ك44 (فضائل الصحابة) بـ13، (في فضل عائشة) 1891/4، ح (2441).

(٢٠) البداية والنهاية، لابن كثير 92/8.

(٢١) (سَحْري): " السِّحر: الرئة، أي أنه مات وهو مستند إلى صدرها وما يحاذي سَحْرَها منه "، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير 346/2.

(٢٢) صحيح مسلم، ك44 (فضائل الصحابة) بـ13 (في فضل عائشة) 1893/4، ح (2443).

(٢٣) الطبقات الكبرى 66/8، ومصنف ابن أبي شيبة، ك (الفضائل)، ب (ما ذكر في عائشة 12/128 (ح (32941)، صححه الألباني في صحيح الجامع، ح (3965).

منهن""[٢٤]، ولقول عمار بن ياسر ﷺ: "إن عائشة قد سارت إلى البصرة ووالله إنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة..."[٢٥].

١٣ ـ عائشة رضي الله عنها نزل فيها قرآن يُتلى إلى يوم القيامة يبرأها الله مما اتهمت به، وذلك في عشر آيات لم ينزل هذا العدد في غيرها من أزواجه ﷺ.

رابعاً: وفاة عائشة رضي الله عنها:

مرضت عائشة رضي الله عنها واشتد مرضها ثم توفت سنة ثمانٍ وخمسين من الهجرة ليلة الثلاثاء السابع عشر/ من شهر رمضان عن سبع وستين عاماً، ثم دفنت في البقيع ليلاً كما أوصت وكانت من آخر أزواج النبي ﷺ وفاة، وصلى عليها أبو هريرة بعد صلاة الوتر[٢٦].

المطلب الثالث: عائشة رضي الله عنها وحادث الإفك.

أولاً: قصة حادثة الإفك:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور/11).

هذه الآية الكريمة تتحدث عن حادثة الإفك، ولها سبب نزول صحيح أخرجه البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن عائشة رضي الله عنها، وسبب النزول بابٌ واسعٌ يفضي إلى التفسير الصحيح للآيات القرآنية.

وسيكتفي الباحث بذكر بعض رواية البخاري رحمه الله عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ قَالَتْ عَائِشَةُ فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ سَهْمِي فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَمَا نَزَلَ الْحِجَابُ فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلُ فِيهِ فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ وَدَنَوْنَا مِنْ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ قَدْ انْقَطَعَ

(٢٤) المستدرك، للحاكم 13/4، صححه الحاكم وصححه الذهبي، وصححه الأرنؤوط، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة 133/3.

(٢٥) صحيح البخاري، ك92 (الفتن) ب (18) 383/3، ح (7100).

(٢٦) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير 94/8، والمستدرك، للحاكم 4/4.

فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي وَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يَرْحَلُونَ لِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ رَكِبْتُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يُثْقِلْهُنَّ اللَّحْمُ إِنَّمَا تَأْكُلُ الْعُلْقَةَ مِنْ الطَّعَامِ فَلَمْ يَسْتَنْكِرْ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ فَأَدْلَجَ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الْحِجَابِ فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي وَوَاللَّهِ مَا كَلَّمَنِي كَلِمَةً وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ عَلَى يَدَيْهَا فَرَكِبْتُهَا فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الْإِفْكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ..."[٢٧].

ثانياً: تفسير الآيات والدروس المستفادة:

سيكتفي الباحث بذكر التفسير الإجمالي لآيات حادثة الإفك، وبعض الدروس المهمة المستفادة منها، كما يلي:

١ - قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور/11).

أ - التفسير الإجمالي:

"إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا" من عند أنفسهم "بِالإِفْكِ" أي: بأسوء الكذب على عائشة رضي الله عنها بقذفها " عُصْبَةٌ مِنْكُمْ" جماعة منكم أيها المؤمنون، منهم: ابن أبيّ، وحسان ابن ثابت، ومسطح، وحمنة بنت جحش "لَا تَحْسَبُوهُ" أيها المؤمنون غير العصبة "شَرًّا لَكُمْ" في دينكم ودنياكم "بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ" يأجركم الله به، ويظهر براءة عائشة رضي الله عنها، "لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ" أي: كل واحد من العصبة له أو عليه "مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ" أي: عقاب ما اكتسب من الإثم بقدر إثمه في ذلك "وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ" أي: تحمل

(٢٧) صحيح البخاري، ك 65 (تفسير القرآن) ب6 (لولا إذ سمعتموه...) 2/463-468، ح (4750).

معظمه فاخترعه وبدأ بالخوض فيه وأشاعه وهو عبد الله بن أبي كما قالت عائشة رضي الله عنها

"لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ" ينتظره في الآخرة وهو نار جهنم(٢٨).

ب - الدروس المستفادة:

الأول: قال الرازي: "وأجمع المسلمون على أن المراد ما أفك على عائشة"(٢٩).

الثاني: استخدم "إن" المؤكدة للتأكيد على براءة عائشة من الإفك الذي نسب إليها.

الثالث: إن قذف عائشة رضي الله عنها سماه الله ﷻ إفكاً، "والإفك: الكذب"(٣٠)، "والإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء"(٣١)، وذلك يدل على عظم حرمة النبي ﷺ وأزواجه رضي الله عنهن.

الرابع: قال الرازي: "وإنما وصف الله تعالى ذلك الكذب بكونه إفكاً لأن المعروف من حال عائشة خلاف ذلك لوجوه: أولها: أن كونها زوجاً للرسول ﷺ المعصوم يمنع من ذلك... وثانيها: أن المعروف من حال عائشة قبل تلك الواقعة إنما هو الصون والبعد عن مقدمات الفجور... وثالثها: إن القاذفين كانوا من المنافقين وأتباعهم..."(٣٢).

الخامس: قال الكلبي: "وذلك أن الله برأ أربعة بأربعة، برأ يوسف بشهادة الشاهد من أهلها وبرأ موسى من قول اليهود بالحجر الذي ذهب بثوبه، وبرأ مريم بكلام ولدها في حجرها، وبرأ عائشة من الإفك بإنزال القرآن في شأنها "(٣٣).

(قلت): وهناك فرق هائل بين تبرئتهم بما ذكر من المخلوقات، وبين تبرئة عائشة رضي الله عنها بالقرآن، وهو صفة الله ﷻ ليس مخلوقاً.

(٢٨) انظر: النكت والعيون، للماوردي 79/4، 80، وتفسير الجلالين، للمحلي والسيوطي، ص 464.

(٢٩) التفسير الكبير 337/8.

(٣٠) لسان العرب، ابن منظور 174/1، ومختار الصحاح، للرازي، ص19.

(٣١) التفسير الكبير، للرازي 337/8.

(٣٢) التفسير الكبير، للرازي 337/8.

(٣٣) التسهيل في علوم التنزيل 61/3.

السادس: قال القرطبي: "والعصبة ثلاثة رجال، قاله ابن عباس، وعنه أيضاً من الثلاثة إلى العشرة، ابن عيينة: أربعون رجلاً، مجاهد: من عشرة إلى خمسة عشرة "[٣٤].

(قلت): "وعلى أعلى تقدير لعدد العصبة، فعددها ضئيل وقليل لعدد أفراد المجتمع الإسلامي إذ ذاك، وخاصة أن أكثر العصبة منافقون، وهذا يدل على عدم تفشي هذه الظاهرة فيهم، ويعزز ذلك تاريخهم قبل حادث الإفك وبعده".

السابع: قال الزحيلي: "إن داء الأمة ينبع من داخلها، وأخطر داء فيها زعزعة الثقة بقادتها ومصلحيها، وتوجيه النقد الهدام لهم، ومحاولة النيل من عرضهم وسمعتهم وكرامتهم، فأهل الإفك ليسوا من الأعداء الخارجين، وإنما هم – في الظاهر – عصبة من المؤمنين "[٣٥].

(قلت): "وفي عصرنا هذا رأينا أعداء الدعوة الإسلامية يتهمون القادة الإسلاميين المصلحين بالرجعية وتارة بالتخلف وتارة بالظلامية وتارة بالعمالة للأعداء وتارة بالإرهاب...!، ويرومون بذلك النيل من دعوة الله ﷻ وإبعاد الناس عنها من خلال النيل من الدعاة إليها".

الثامن: قال الكلبي: ""بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ" خطاب للمسلمين، والخير في ذلك من خمسة أوجه: تبرئة أم المؤمنين، وكرامة الله لها بإنزال الوحي في شأنها، والأجر الجزيل لها في الفرية عليها، وموعظة المؤمنين، والانتقام من المفترين "[٣٦].

التاسع: الآية الكريمة تدل على أن أفراد عصبة الإفك متفاوتون في اجتراحهم للإثم، فأعظمهم الذي اخترع الإفك وأشاعه وهو عبد الله بن أبي، ثم الذي سمعه ونشره، ثم الذي سمعه وصدقه ولم ينشره، ثم الذي سمعه ولم يصدقه ولكنه لم ينكره ولو بقلبه.

قال الألوسي: "وكان لعنه الله يجمع الناس عنده، ويذكر لهم ما يذكر من الإفك، وهو أول من اختلقه وأشاعه لإمعانه في عداوة رسول الله ﷺ"[٣٧].

(٣٤) الجامع لأحكام القرآن 492/6-493.

(٣٥) التفسير المنير 185/18-186.

(٣٦) التسهيل لعلوم التنزيل 61/3.

العاشر: إن النفاق ينجم عنه الكذب والإفك، ولذلك الذي تولى كبره هو رأس النفاق، والذين أشاعوه أكثرهم أشياعه من المنافقين، ولا عجب في ذلك، قال ﷺ: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان"[٣٨].

الحادي عشر: قال أبو السعود: ""لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ" أي: في الآخرة أو الدنيا أيضاً، فإنهم جلدوا، وردت شهادتهم، وصار ابن أبيّ مطروداً مشهوداً عليه بالنفاق، وحسان أعمى وأشل اليدين، ومسطح مكفوف البصر"[٣٩]، وقال الزحيلي: "للذين خاضوا في إثم الإفك جزاء وعقاب في الدنيا والآخرة، وهم الذين أصروا على التهمة، أما الذين تابوا وهم حسان ومسطح وحمنة، فقد غفر الله لهم"[٤٠].

٢ - قال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ (النور/12).

أ - التفسير الإجمالي:

"لَوْلَا" هلا "إِذْ" حين "سَمِعْتُمُوهُ" سمعتم قذف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وصفوان ﷺ "ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا" ظننتم بهما كظنكم بأنفسكم فكلكم مؤمنون كنفسٍ واحدة "وَقَالُوا هَذَا" القذف الذي يُشاع به "إِفْكٌ مُبِينٌ" أي: كذب بيِّن وأمكم لا تفعله[٤١].

ب - الدروس المستفادة:

الأول: إن المؤمنين والمؤمنات كنفس واحدة، قال النبي ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ؛ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[٤٢].

---

(٣٧) روح المعاني 312/9.

(٣٨) صحيح البخاري، ك78 (الأدب) ب69 (قول الله تعالى...) 157/3، ح (6095).

(٣٩) إرشاد العقل السليم 444/3.

(٤٠) التفسير المنير 185/18-186.

(٤١) انظر: بحر العلوم، للسمرقندي 432/2.

(٤٢) صحيح مسلم، ك45 (البر والصلة...) ب17 (تراحم المؤمنين...) 1999/4-2000، ح (2586).

الثاني: أنه لا يجوز الظن السيئ بالمؤمنين فضلاً عن عائشة رضي الله عنها بمجرد إشاعات لا بينة فيها من إقرار أو شهود، وقد قال ﷻ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات/6) وقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات/12)، وقال النبي ﷺ: "إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث..."[٤٣].

٣ ـ قال تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾ (النور/13).

أ ـ التفسير الإجمالي:

أي: وقال المؤمنون أيضاً: "لَوْلَا" أي: هلا "جَاءُوا عَلَيْهِ" أي: جاء الخائضون على إفكهم "بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ" يشهدون على إفكهم "فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ" الأربعة "فَأُولَئِكَ" الخائضون في الإفك "عِنْدَ اللهِ" أي: في حكم الله تعالى "هُمُ الكَاذِبُونَ" أي: الكاملون في الكذب[٤٤].

ب ـ الدروس المستفادة:

الأول: إن جريمة القذف تثبت بأربعة شهداء كما في الآية، أو بإقرار المقذوف.

الثاني: يجب أن يكون الشهداء الأربعة صادقين في شهادتهم غير ساقطي الشهادة لفسق ونحوه، رؤياهم متفقة في ذلك لا اختلاف بينهم.

الثالث: قال القرطبي: "وقد يعجز الرجل عن إقامة البينة وهو صادق في قذفه، ولكنه في حكم الشرع وظاهر الأمر كاذب لا في علم الله تعالى، وهو سبحانه رتب الحدود على حكمه الذي شرعه في الدنيا لا على مقتضى علمه الذي تعلق بالإنسان على ما هو عليه، فإنما يبني على ذلك حكم الآخرة"[٤٥].

٤ ـ قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور/14).

(٤٣) صحيح مسلم، ك45 (البر والصلة والآداب) ب9 (تحريم الظن...) 1985/4، ح (2563).

(٤٤) انظر: فتح القدير، للشوكاني 13/4.

(٤٥) الجامع لأحكام القرآن 496/6-497.

أ - التفسير الإجمالي:

"وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ" أي: "وَلَوْلَا" تفضله سبحانه "عَلَيْكُمْ" أيها الخائضون في الإفك غير المنافقين "وَرَحْمَتُهُ" إياكم "فِي الدُّنْيَا" بأنواع النعم والتي منها الإمهال للتوبة "وَ" في "الآخِرَةِ" بضروب الآلاء، والتي منها العفو والمغفرة بعد التوبة "لَمَسَّكُمْ" عاجلاً "فِي فَيما أَفَضْتُمْ فِيهِ" أي: بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك "عَذَابٌ عَظِيمٌ" يُستحقر دونه التوبيخ والجلد(٤٦).

ب - الدروس المستفادة:

الأول: الخطاب لغير ابن أبيّ من الخائضين لأنه رأس المنافقين لا حظ له من رحمة الله في الآخرة، لأنه مخلد في النار(٤٧)، (قلت): وكذا كل المنافقين الذين خاضوا بالإفك، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ..﴾ (النساء:145).

الثاني: قال القرطبي: "وهذا عتاب من الله تعالى بليغ، ولكنه برحمته ستر عليكم في الدنيا ويرحم في الآخرة من أتاه تائباً "(٤٨).

الثالث: إن فضل الله ورحمته تعمان المؤمنين دنيا وآخرة ما تابوا وأنابوا.

٥ - قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ﴾ (النور/15).

أ - التفسير الإجمالي:

"إِذْ" حين "تَلَقَّوْنَهُ" أي: تتلقفونه "بِأَلْسِنَتِكُمْ" ويروويه بعضكم عن بعض "وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ" من حديث الإفك "مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ" قائم على بينة من شهود أو إقرار "وَتَحْسَبُونَهُ" أي: الحديث بالإفك والخوض فيه والإذاعة له "هَيِّنًا" أي: شيئاً يسيراً لا يلحقكم به إثم "وَهُوَ عِنْدَ اللهِ" في الوزر والإثم "عَظِيمٌ"(٤٩).

ب - الدروس المستفادة:

(٤٦) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، 445/4، وروح المعاني، للألوسي 315/9.

(٤٧) انظر: روح المعاني، للألوسي 315/9.

(٤٨) الجامع لأحكام القرآن 497/6.

(٤٩) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي 498/6.

الأول: إن القذف بلا علم وبينة شرعية ذنبٌ عظيم عند الله ﷻ، وكبيرة من الكبائر وصاحبه له عذاب عظيم، قال النبي ﷺ: "إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين ما فيها، يهوي بها في النار، أبعد ما بين المشرق والمغرب"(٥٠).

الثاني: " وفائدة قوله " بِأَلْسِنَتِكُمْ" و" بِأَفْوَاهِكُمْ" الإشارة إلى أن ذلك الحديث كان باللسان دون القلب، إذ لم يعلموا حقيقته بقلوبهم"(٥١).

الثالث: قال الكلبي: "فعاتبهم على ثلاثة أشياء، وهي: تلقيه بالألسنة، أي: السؤال عنه وأخذه من المسئول، والثاني: قولهم ذلك، والثالث: أنهم حسبوه " هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ""(٥٢).

٦ ـ قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ (النور/16).

أ ـ التفسير الإجمالي:

"وَلَوْلَا" هلا "إِذْ" حين "سَمِعْتُمُوهُ" أي: حديث الإفك "قُلْتُمْ" أي: تكذيباً لمشيعيه "مَا يَكُونُ لَنَا" ما ينبغي وما يصح لنا بوجهٍ ما "أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا" الإفك "سُبْحَانَكَ" أي: تنزيهاً لك، وبراءة إليك مما جاء به الأفاكون، وتقال للتعجب من الأمر العظيم أو العجيب "هَذَا" القذف "بُهْتَانٌ" كذب "عَظِيمٌ" يستحيل تصديقه(٥٣).

ب ـ الدروس المستفادة:

الأول: الله ﷻ شهد أن قذف عائشة رضي الله عنها أعظم الكذب، حتى أنه ﷻ نزه نفسه في هذا المقام بقوله "سُبْحَانَكَ" أي: عن أن يزوج نبيه ورسوله ﷺ بامرأة غير طاهرة وعفيفة.

الثاني: الواجب على المؤمن ألا يستمع ولا ينقل كلام القذف المبني على الإشاعات والجهل، بل يكذبه.

(٥٠) صحيح مسلم، ك53 (الزهد والرقائق) ب6 (التكلم بالكلمة...) 4/2290، ح (2988).

(٥١) التسهيل لعلوم التنزيل، للكلبي 3/62.

(٥٢) التسهيل لعلوم التنزيل، للكلبي 3/62، وانظر: التفسير الكبير، للرازي 8/342-343.

(٥٣) انظر: محاسن التفسير، للقاسمي 12/4463، وتفسير الجلالين، ص 464-465.

الثالث: إن القذف بلا بينة "بُهْتَانٌ عَظِيمٌ" نزه الله نفسه عند ذكره.

٧ - قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمَ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (النور/17).

أ - التفسير الإجمالي:

""يَعِظُكُمَ اللهُ" أي: ينصحكم "أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ" أي: تقذفوا المؤمنين بلا بينة وشهود كما قذفتم عائشة وصفوان ﷺ "أَبَدًا" أي: مدة حياتكم "إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" لأن الإيمان يمنع من ذلك "[٥٤].

ب - الدروس المستفادة:

الأول: الله ﷻ يعظنا وينصحنا ألا نقذف نساء النبي ﷺ خاصة ونساء المؤمنين عامة حتى موتنا، وذلك في الأمة كلها إلى يوم القيامة.

الثاني: إن قذف أم المؤمنين عائشة بعد أن برأها الله ﷻ يخرج من الإيمان؛ لأنه تكذيب لله ﷻ، وقذف نساء المسلمين عامة يتنافى مع الإيمان ويضعفه.

قال الإمام مالك: "من سبَّ أبا بكر وعمر أدّب، ومن سب عائشة قتل، لأن الله تعالى قال: "يَعِظُكُمَ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ""[٥٥].

وقال الفخر الرازي: "فإن الله لما نص على كون تلك الواقعة إفكاً وبالغ في شرحه، فكل من يشك فيه كان كافراً قطعاً وهذه درجة عالية"[٥٦].

وقال الحافظ بن كثير: "وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد ذلك ورماها بما رماها به يعد ذلك الذي ذكر في هذه الآية، فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن، وفي بقية أمهات المؤمنين قولان: أصحهما أنهن كهي والله أعلم"[٥٧].

٨ - قال تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النور/18).

أ - التفسير الإجمالي:

---

(٥٤) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود 446/4.

(٥٥) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي 497/6.

(٥٦) التفسير الكبير 338/8.

(٥٧) تفسير القرآن العظيم 276/3، وانظر: البداية والنهاية، لابن كثير 92/8.

""وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ" الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب دلالة واضحة بينة "وَاللهُ عَلِيمٌ" بأحوال جميع مخلوقاته جلائلها ودقائقها "حَكِيمٌ" في جمع تدابيره وأفعاله، والمراد: الله جل ثناؤه بعلمه وحكمته اصطفى عائشة رضي الله عنها زوجاً لنبيه ﷺ"(٥٨).

ب - الدروس المستفادة:

الأول: الله ﷻ بين ووضح للمسلمين الآيات الدالة على شرائعه ومنها القذف، وبذلك فقد أعذر من بين وأنذر.

الثاني: إن الله ﷻ بعلمه وحكمته اصطفى الصديقة عائشة رضي الله عنها زوجاً لأكرم أنبيائه محمد ﷺ، وقد قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ (الملك/14).

٩ - قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور/19).

أ - التفسير الإجمالي:

"إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ" تنتشر وتفشوا باللسان "الفَاحِشَةُ" الزنى "فِي الَّذِينَ آمَنُوا" بنسبتها إليهم وهم عصبة الإفك "لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا" بحد القذف لحق المقذوفين "وَالآخِرَةِ" بالنار لحق الله ﷻ "وَاللهُ يَعْلَمُ" إنتفاء الفاحشة عنهم "وَأَنْتُمْ" أيها العصبة التي خاضت في الإفك "لَا تَعْلَمُونَ" وجود الفاحشة فيهم ببينة إقرار أو أربعة شهود(٥٩).

ب - الدروس المستفادة:

الأول: استخدم الأفعال المضارعة في "يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ" ليدل على مرض في قلوب أصحاب الإفك وهو: استمرار الحب في قلوبهم باستمرار شيوع القذف في الذين آمنوا.

(٥٨) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود 446/4.

(٥٩) انظر: تفسير الجلالين، للمحلي والسيوطي، ص465.

الثاني: قوله: ""فِي الَّذِينَ آمَنُوا" أي: في المحصنين والمحصنات، والمراد بهذا اللفظ العام عائشة وصفوان رضي الله عنهما "[٦٠].

الثالث: ذهب الطبري إلى أن العذاب الأليم في الآخرة عذاب النار لمن مات مصراً غير تائب[٦١]، وذهب القرطبي أنه للمنافقين خاصة؛ لأن الحدّ للمؤمنين كفارة للحديث في ذلك[٦٢].

(قلت) والذي يرجحه الباحث ما يلي:-

- أن عذاب النار في الآخرة للمنافقين، ولمن مات مصراً غير تائب من قذف عائشة رضي الله عنها من الأمة إلى يوم القيامة.
- أن من أقيم عليه حد القذف من المؤمنين فهو كفارة له.
- من مات مصراً غير تائب من قذف مؤمنة غير نساء النبي ﷺ فأمره يوم القيامة إلى الله ﷻ إن شاء عذبه بعدله وإن شاء غفر له بفضله ورحمته بعمل أحسن فيه كشهادة في سبيل الله ﷻ أو بشفاعة أحد الشافعين أو...، وذلك حكم من مات على كبيرة غير الشرك دون توبة منها، والله أعلم.

قال الطحاوي: "وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ في النار لا يخلدون إذا ماتوا، وهم موحدون، وإن لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله عارفين، وهم في مشيئته وحكمه إن شاء عفا عنهم بفضله كما ذكر الله ﷻ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء/48)، وإن شاء عذبهم في النار بعدله"[٦٣].

١٠ قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (النور/20).

أ - التفسير الإجمالي:

(٦٠) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي 499/6.

(٦١) انظر: جامع البيان 100/18.

(٦٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن 499/6.

(٦٣) شرح العقيدة الطحاوية، لأبي العز الحنفي، ص 369، 370.

"وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ" أيها العصبة "وَرَحْمَتُهُ" بكم، وجواب لولا مضمر، أي: لولا مَنَّ الله عليكم ونعمته لعاقبكم فيما قلتم في أمر عائشة وصفوان رضي الله عنهما "وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ" بكم حيث لم يعاجلكم بالعقوبة(٦٤).

ب - الدروس المستفادة:

الأول: إن الله ﷻ عظيم الفضل والرحمة والرأفة بعباده المؤمنين، يتفضل عليهم، ويرحمهم، ويرأف بهم لإيمانهم وتوبتهم.

الثاني: إن المؤمن عليه ألا ييأس من رحمة الله ﷻ، وعليه أن يتوب إلى الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف:87).

الثالث: لولا فضل الله ﷻ العظيم ورحمته الواسعة التي تسبق غضبه ورأفته البالغة لعاقب الذين قالوا في عائشة وصفوان رضي الله عنهما، ولمسهم عذاب أليم.

(٦٤) انظر: بحر العلوم، للسمر قندي 433/2، وتفسير الجلالين، للمحلي والسيوطي، ص 465.

المبحث الثاني: حفصة زوج النبي ﷺ.

المطلب الأول: الآيات التي ذكرت حفصة رضي الله عنها والملاحظات.

أولاً: الآيات التي ذكرت حفصة رضي الله عنها:

ورد ذكر حفصة رضي الله عنها في الآيات الكريمة الستة التالية:

١ - قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ * وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ العَلِيمُ الخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ المُؤْمِنِينَ وَالمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ (التَّحريم/1-5).

٢ - وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا العِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ (الطَّلاق/1).

ثانياً: الملاحظات المستفادة من الآيات:

١ - إن هذه الآيات الكريمة نزلت في سورتين فقط، وهما سورتا الطلاق والتحريم، وهما من السور المدنية التي تهتم بجانب التشريع.

٢ - إن هذه الآيات الكريمة عددها ست آيات، وهذا عددٌ ليس بالقليل باعتباره قرآن يُتلى إلى يوم القيامة وكلامٌ لله ﷻ، فلا أشرف من هذا الكلام !

٣ - إن هذه الآيات لم يُصرح فيها باسم أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها على طريقة القرآن الكريم.

٤ - إن هذه الآيات الكريمة اشتملت على دروس عظيمة أفادت نساء النبي ﷺ خاصة، والأمة رجالاً ونساءً عامة إلى يوم القيامة.

المطلب الثاني: التعريف بحفصة رضي الله عنها.

أولاً: نسب حفصة رضي الله عنها:

هي: أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها بنت عمر بن الخطاب ﷺ وزوج النبي ﷺ، وهي العربية القرشية العدوية، وأمها: زينت بنت مظعون من المهاجرات[٦٥].

ثانياً: زواج حفصة رضي الله عنها:

روى أبو يعلى بسنده عن سالم: "أنه سمع أباه يحدث أن عمر لما تأيمت حفصة من خنيس بن حذافة السهمي، قال عمر: "لقيت عثمان وقد تأيم من رقية بنت النبي ﷺ فعرضت عليه حفصة قال: "سأنظر في أمري" فلبثت ليالي، ثم لقيني فقال: "قد بدا لي ألا أتزوج يومي هذا"، قال عمر: "فلقيت أبا بكر، فقلت: "أنكحك حفصة فلم يرجع إليَّ شيئاً، فكنت عليه أوجد مني على عثمان، فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحته إياها، فلقيني أبو بكر فقال: "لعلك وجدت عليّ حين عرضت عليّ حفصة؟" قال: "نعم"، قال: "لم يمنعني أن أرجع إليك إلا أنني كنت علمت أن رسول الله ﷺ ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ ولو تركها قبلتها"، قال عمر: "فشكوت عثمان إلى رسول الله ﷺ" فقال رسول الله ﷺ: "تُزوج حفصة خيراً من عثمان، ويُزوج عثمان خيراً من حفصة" فزوجه النبي ﷺ ابنته "[٦٦].

وقد تزوج رسول الله ﷺ حفصة في شعبان على رأس ثلاثين شهراً من الهجرة قبل غزوة أحد "[٦٧]، "وعند أكثرهم تزوجها في سنة ثلاثة من الهجرة، وقال أبو عبيدة: تزوجها سنة اثنين من التاريخ"[٦٨].

ثالثاً: فضائل ومناقب حفصة رضي الله عنها:

١ - حفصة رضي الله عنها هي العربية القرشية العدوية بنت عمر بن الخطاب ﷺ خير وأفضل الأمة بعد محمد ﷺ وبعد أبي بكر الصديق ﷺ.

---

(٦٥) انظر: المستدرك، للحاكم 14/4، والاستيعاب في معرفة الأصحاب 1811/4، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير 74/7.

(٦٦) مسند أبي يعلى 18/1، ح (6)، قال حسين سليم أسد: " إسناده صحيح " وانظر: المستدرك، للحاكم، ك (معرفة الصحابة) ب (ذكر أم المؤمنين حفصة...) 14/4.

(٦٧) المستدرك، للحاكم 15/4.

(٦٨) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر 1811/4، 1812، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير 74/7.

٢ - حفصة رضي الله عنها هي أم المؤمنين زوج النبي ﷺ، فقد تزوجها بعد خديجة وسودة وعائشة وأم سلمة رضي الله عنهن[٦٩]، فهي الخامسة في الترتيب.
٣ - حفصة رضي الله عنها نزل فيها قرآن يُتلى ويتعلم منه المؤمنون إلى يوم القيامة.
٤ - حفصة رضي الله عنها كانت صوامة قوامة.
٥ - حفصة رضي الله عنها لما طلقها النبي ﷺ أمره ربه ﷻ أن يراجعها، أخرج الحاكم واللفظ له والطبري عن أنس ﷺ: "أن النبي ﷺ طلق حفصة تطليقة، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا محمد طلقت حفصة وهي صوامة قوامة، وهي زوجتك في الجنة فراجعها"، وفي رواية قيس بن زيد قال النبي ﷺ: "قال لي جبريل عليه السلام راجع حفصة فإنها صوامة قوامة وأنها زوجتك في الجنة"[٧٠].
٦ - حفصة رضي الله عنها روت عدة أحاديث عن النبي ﷺ.
٧ - حفصة رضي الله عنها حفظت عندها نسخة القرآن وكانت في صحيفة من رق وذلك بعد وفاة أبيها عمر ﷺ ثم أعطتها عثمان ﷺ ليعرضها على الجمع الأخير للمصحف ثم أعادها إليها.
٨ - حفصة رضي الله عنها إحدى أزواج النبي ﷺ في الجنة بدليل الرواية السابقة.

رابعاً: وفاة حفصة رضي الله عنها:

توفيت حفصة رضي الله عنها في شعبان سنة خمس وأربعين للهجرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان ﷺ عن ستين سنة، وعلى ذلك أجمع الجمهور[٧١]، وصلى عليها أمير المدينة مروان بن الحكم ثم دفنت في البقيع[٧٢].

المطلب الثالث: حفصة رضي الله عنها وآيات التحريم وآية الطلاق.

أولاً: أسباب نزول آيات التحريم:

ورد في نزول آيات التحريم الخمسة ثلاثة أسباب مختلفة والتفصيل كما يلي:-

السبب الأول: وفيه عدة روايات منها:

(٦٩) انظر: المستدرك، للحاكم 3/4.
(٧٠) المستدرك، للحاكم ك (معرفة الصحابة) ب (ذكر أم المؤمنين حفصة) 15/4، وجامع البيان للطبري 132/28.
(٧١) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير 30/8.
(٧٢) انظر: المستدرك، للحاكم 15/4.

١ - أخرج البخاري ومسلم واللفظ له عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ، كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً، قالت: "فتواطأت[٧٣] أنا وحفصة أن أيتنا ما دخل عليها رسول الله ﷺ فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير[٧٤] أكلت مغافير؟" فدخل على إحداهما فقالت له ذلك، فقال: "بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له" فنزل "لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ" إلى قوله: "إِنْ تَتُوبَا" لعائشة وحفصة "وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا" لقوله: "بل شربت عسلاً"[٧٥].

٢ - وروى البخاري - واللفظ له - ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان رسول الله ﷺ يحب العسل والحلواء، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنوا من أحداهن، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس فَغِرْتُ فسألت عن ذلك فقيل لي: "أهدت لها امرأة من قومها عُكةً من عسلٍ فسقت النبي ﷺ منه شربةً" فقلت: "أما والله لنحتالنَّ له"، فقلت: لسودة بنت زمعة: "إنه سيدنو منك فإذا دنا منك فقولي أكلت مغافير..." فلما دار إليّ وقلت له نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له: مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت: يا رسول الله ألا أسقيك منه؟ قال: "لا حاجة لي فيه" قالت: تقول سودة: "والله لقد حرمناه منه، قلت لها: اسكتي"[٧٦].

٣ - وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردوية، وقال السيوطي: بسند صحيح عن ابن عباس قال: "كان رسول الله ﷺ يشرب من شراب عند سودة من العسل، فدخل على عائشة فقالت: إني أجد منك ريحاً، فدخل على حفصة، فقالت: إن أجد منك ريحاً، فقال: "أراه من شراب شربته عند سودة والله لا أشربه" فأنزل الله ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ"الآية[٧٧].

٤ - وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن رافع قال: سألت أم سلمة عن هذه الآية ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ﴾ قالت: كانت عندي عكة من عسل أبيض، فكان

(٧٣) (فتواطأت): "أي: اتفقت"، شرح النووي على صحيح مسلم 74/10.

(٧٤) (مغافير): "وهو صمغ حلو كالناطف وله رائحة كريهة ينضحه شجر يقال له العرفط.. بالحجاز"، شرح النووي على صحيح مسلم 75/10.

(٧٥) صحيح البخاري، ك 65 (تفسير القرآن) بـ66 (سورة التحريم) 516/2، ح (4912)، وصحيح مسلم - واللفظ له - ك18(الطلاق) بـ3 (وجوب الكفارة...) 1100/2، ح (1474).

(٧٦) صحيح البخاري، ك68 (الطلاق) بـ8 (لم تحرم..) 598/2، ح (5268)، وصحيح مسلم، ك18 (الطلاق) بـ3 (وجوب الكفارة..) 1101/2، ح (1474).

(٧٧) الدر المنثور، للسيوطي 213/8، 214، وفتح القدير، للشوكاني 251/5.

النبي ﷺ يلعق منها، وكان يحبسه، فقالت له عائشة: "نحلها تجرش عرفطا"[٧٨] فحرمها، فنزلت هذه الآية[٧٩].

(قلت): هذه الروايات أكثرها صحيح ولا تناقض وتنافي فيما بينها، فهي قد تكررت من رسول الله ﷺ مع أربع من نسائه شرب عندهن عسلاً في مرات متعددة ومتفاوتة، ولغيرة نسائه قلن له ما قلن بشأن ريح المغافير لأكله العسل كي لا يحتبس عند إحداهن دونهن.

السبب الثاني: أخرج النسائي والحاكم وصححه وابن مردوية عن أنس: "أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراماً، فأنزل الله هذه الآية ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ""[٨٠].

وأخرج البزار والطبراني قال السيوطي: بسند صحيح عن ابن عباس قال: "قلت لعمر بن الخطاب: من المرأتان اللتان تظاهرتا؟ قال: "عائشة وحفصة"، وكان بدوّ الحديث في شأن مارية القبطية أم إبراهيم أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في يومها، فوجدت حفصة، فقالت: "يا رسول الله لقد جئت إليّ بشيء ما جئته إلى أحد من أزواجك في يومي وفي دوري على فراش"، قال: "ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها أبداً؟" قالت: "بلى"، فحرمها وقال: "لا تذكري ذلك لأحد"، فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه، فأنزل الله ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ الآيات كلها، فبلغنا أن رسول الله ﷺ كفر عن يمينه وأصاب مارية"[٨١].

السبب الثالث: "أخرج ابن أبي حاتم وابن مردوية (قال السيوطي) بسندٍ ضعيف عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ﴾ في المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ"[٨٢].

---

(٧٨) الدر المنثور في التفسير المأثور، للسيوطي 213/8-214، وفتح القدير للشوكاني 251/5.

(٧٩) (نحلها تجرش عرفطا) أي: النحل أكلت العرفط من شجر العضاة وله شوك وقيل رائحته كريهة ليصير منه العسل، انظر: شرح النووي على صحيح مسلم 76/10.

(٨٠) المستدرك، للحاكم، ك (التفسير) ب (تفسير سورة التحريم) 493/2، صححه الحاكم وصححه الذهبي، وانظر: الدر المنثور للسيوطي 214/8.

(٨١) فتح القدير، للشوكاني 251/5-252، الدر المنثور، للسيوطي 214/8، وأسباب النزول، للواحدي ص 312.

(٨٢) الدر المنثور، للسيوطي 217/8، وانظر: فتح القدير، للشوكاني 252/5.

وقد ضعَّف ابن العربي سند ومعنى هذه الرواية فقال: "أما ضعفه في السند فلعدم عدالة رواته، وإما ضعفه في معناه؛ فلأن ردّ النبي ﷺ للموهوبة ليس تحريماً لها؛ لأن من ردّ ما وُهب له لم يحرُم عليه"(٨٣).

(قلت): وهذه الرواية ضعيفة سنداً ومعنى، فهي متهاوية ومتهالكة لا تعتبر سبباً لنزول الآيات الكريمة، ولا يصح تفسير الآيات الكريمة بها، خاصة مع وجود السببين الأخريين الصحيحين.

الجمع بين السببين الأول والثاني:

الخلاصة: آيات التحريم السابقة لها سببا نزول، صحيحا السند والمتن والمعنى، مختلفا الحادثة والواقعة، فكيف يوفق بينهما في نزول آيات التحريم؟

قال الشوكاني: " فهذان سببان صحيحان لنزول الآية، والجمع ممكن بوقوع القصتين: قصة العسل، وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعاً، وفي كل واحدٍ منهما أنه أسرَّ الحديث إلى بعض أزواجه"(٨٤).

(قلت): ويؤيد هذا أن من مباحث علوم القرآن عامة، وأسباب النزول خاصة، ما عَنْون له العلماء بقولهم: تعدد الأسباب والنازل واحد[٨٥]، يقصدون أن بعض الآيات الكريمة

لها سببان أو أكثر للنزول، والله أعلم.

وذكر القرطبي والشوكاني: أن أكثر المفسرين على أن الآية نزلت في حفصة عندما وجدت النبي ﷺ معه سريته مارية في بيتها(٨٦).

ثانياً: أسباب نزول آية الطلاق:

وردت في سبب نزول آية الطلاق الكريمة روايتان:

(٨٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي 407/9، وانظر: فتح القدير، للشوكاني 252/5.

(٨٤) فتح القدير 252/5.

(٨٥) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني 116/1.

(٨٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي 411/9، وفتح القدير، للشوكاني 249/5.

الأولى: أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير واللفظ له وابن المنذر عن أنس قال: "طلق رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر تطليقة، فأنزلت هذه الآية: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فقيل: راجعها فإنها صوامة قوامة، وإنها من نسائك في الجنة"(٨٧).

الثانية: أخرج البخاري واللفظ له ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والدار قطني عن ابن عمر رضي الله عنهما: "أنه طلق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله ﷺ فسأل عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ عن ذلك فقال رسول الله ﷺ: "مره فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء"(٨٨).

(قلت): ورواية أنس ﷺ هي الأرجح في سبب نزول الآية الكريمة؛ لأنه صُرح فيها بلفظ سبب النزول بقوله: "فأنزل الله..."، وأما رواية ابن عمر ﷺ فهي صحيحة السند والمتن، لكن لم يُصرح فيها بلفظ سبب النزول كما الرواية الأولى، ولعلها تطبيق عملي للآية الكريمة بعد نزولها وليس سبب نزولها.

وإن كانت سبب آخر لنزول الآية فمن باب تعدد الأسباب والنازل واحد.

ثالثاً: تفسير الآيات والدروس المستفادة:

١ - قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التَّحريم/1).

أ - التفسير الإجمالي:

هذا عتاب من الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ، حين حرم على نفسه سريته (مارية)، وشرب العسل كما سبق في أسباب النزول، فأنزل الله تعالى هذه الآيات "يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ" أي: يأيها الذي أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة والوحي "لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ" من جاريتك مارية ومن شرب العسل "تَبْتَغِي" أي: تطلب بذالك التحريم "مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ" أي:

(٨٧) جامع البيان، للطبري 132/28، وأسباب النزول، للواحدي ص310، والدر المنثور، للسيوطي 189/8.

(٨٨) صحيح البخاري، ك68(الطلاق) ب1 (يا أيها النبي...) 595/2، ح(5251)، وصحيح مسلم، ك18 (الطلاق) ب (تحريم طلاق الحائض...) 1093/2، ح(1471).

رضا زوجاتك ومراعاة خاطرهن "وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" في هذا دليل على أن الله ﷻ غفر لنبيه ما حرم على نفسه(٨٩).

ب - الدروس المستفادة:

الأول: خاطب الله ﷻ حبيبه ﷺ بالنبوة؛ إكراماً له، وإشعاراً بأن ما وقع منه من تحريم سريته والعسل لا يؤثر ولا يقدح في مقام النبوة.

الثاني: قال: "يَأَيُّهَا النَّبِيُّ"، ولم يقل: يا نبيّ، وذلك حتى لا يُشعر التعبير بجفوة وكأنه كأيّ نبي، وإنما استخدم (ال) التي للعهد، للإشارة إلى نبي معين مكرم مميز لا غيره ﷺ.

الثالث: الآية الكريمة تدل بما لا شك فيه أن التشريع والتحليل والتحريم لله ﷻ وحده لا شريك له، وأن الله ﷻ سيحاسب الذين يتألهون عليه فيحرمون أو يحلون مخالفين شرع الله ﷻ، أخرج الترمذي بسنده عن عدي بن حاتم قال: "أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: "يا عدي اطرح عنك هذا الوثن" وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ" (التوبة/31)، قال ﷺ: "أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإن حرموا عليهم شيئاً حرموه"(٩٠)، وفي رواية البيهقي، قال عدي بن حاتم:" قلت يا رسول الله إنهم لم يكونوا يعبدونهم" قال ﷺ: "أجل ولكن يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه، ويحرمون عليهم ما أحل الله فيحرمونه، فتلك عبادتهم لهم"(٩١).

الرابع: النبي ﷺ لم يغير شرع الله ﷻ ولم يفتِ للناس أن العسل والإماء صارا حراماً بعد حلالٍ كما فعل الأحبار والرهبان وإنما منع نفسه من ذلك إرضاءً لأزواجه.

الخامس: قال الزجاج: " ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله، ولم يجعل لنبيه ﷺ أن يحرم إلا ما حرم الله عليه، فمن قال لزوجه أو أمته: أنتِ عليّ حرام، ولم يَنْوِ طلاقاً ولا ظِهاراً فهذا اللفظ يوجب كفارة اليمين، ولو خاطب بهذا اللفظ جمعاً من الأزواج والإماء فعليه

(٨٩) انظر: التسهيل في علوم التنزيل، للكلبي 130/2، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي 419/7.

(٩٠) سنن الترمذي، ك48 (تفسير القرآن) ب10 (ومن سورة التوبة) 259/5-260، ح(3095) قال الترمذي " هذا حديث غريب " وقال الألباني: " حسن ".

(٩١) السنن الكبرى، للبيهقي 116/10.

كفارة واحدة، ولو حرم على نفسه طعاماً أو شيئاً آخر لم يلزمه بذلك كفارة عند الشافعي ومالك، وتجب بذلك كفارة عن ابن مسعود والثوري وأبي حنيفة"[٩٢].

السادس: قال القرطبي: "واختلف العلماء في الرجل يقول لزوجه: أنت عليّ حرام على ثمانية عشر قولاً: أحدها: لا شيء عليه... وثانيها: أنها يمين يكفرها... وثالثها: أنها تجب فيها كفارة وليست بيمين... ورابعها: هي ظهار، ففيها كفارة الظهار... وخامسها: أنه إن نوى الظهار وهو ينوي أنها محرمة كتحريم ظهر أمه؛ كان ظِهاراً، وإن نوى تحريم عينها عليه بغير طلاق تحريماً مطلقاً؛ وجبت كفارة يمين، وإن لم ينو شيئاً فعليه كفارة يمين، قاله الشافعي... وسادسها: أنها طلقة رجعية... وسابعها: أنها طلقة بائنة "[٩٣]، وذكر القرطبي كل الأقوال بأدلتها وبنسبتها لأصحابها وبتوجيهاتهم لها.

(قلت): والراجح -والله أعلم- هو ما ذهب إليه الشافعي والزجاج -رحمهما الله-؛ لأنه جامع شامل حاصر للحالات الأربع رابط بين اللفظ القول والنية.

السابع: لا يجوز للمؤمن أن يمنع نفسه مما أحل الله ﷻ من الطيبات، أو يقحم نفسه فيما حرم الله إرضاءً لأزواجه فضلاً عن غيرهن، وإنما مرضات الأزواج تكون فيما أحل الله وأباح، أو بالبعد عما نهى وحرم.

الثامن: قوله: "وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" فيه: صيغتا مبالغة على وزن فعول وفعيل، تدلان على عظم مغفرة الله ﷻ لعباده المؤمنين حتى أنه ليغفر لهم ويدخلهم الجنة، ومن دخل منهم النار فإنه مصيره الجنة لأن لا يخلد في النار مؤمن، وعظيم الرحمة بعباده حتى أنه يطعمهم ويسقيهم ويشفيهم ويرزقهم...، رغم كفرهم ومعاصيهم ونسبتهم الشريك والزوجة والولد له، ولكن رحمة الله ﷻ في الآخرة خاصة بالمؤمنين.

٢ ـ قال تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ (التَّحريم/2).

أ ـ التفسير الإجمالي:

"قَدْ فَرَضَ اللهُ" أي: شرع الله ﷻ "لَكُمْ" أيها المؤمنون "تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ" أي: تحليل ما عقدتم من الأيمان بالكفارة "وَاللهُ مَوْلَاكُمْ" أي: وليكم وناصركم والمتولي لأموركم "وَهُوَ

(٩٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي 408/9، وانظر: التسهيل لعلوم التنزيل، للكلبي 130/4.

(٩٣) الجامع لأحكام القرآن 406/9-407.

العَلِيمُ" أي: بمصالحكم وما فيه صلاحكم وفلاحكم دنيا وآخرة "الحَكِيمُ" في أفعاله وأقواله، وفي تدبيره إياكم بما شرعه وحكم به(٩٤).

ب - الدروس المستفادة:

الأول: الله ﷻ وحده هو الذي يشرع، ومن ذلك تشريعه لكفارة الأيمان.

الثاني: كفارة اليمين في هذه الآية مجملة وهي "تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ" وتفصيلها في آية المائدة وهي: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ (المائدة/89).

الثالث: الله ﷻ هو مولانا، أي: ناصرنا والمتولي لأمورنا، فإن تخلى عنا بسبب منا فليس لنا وليٌ من بعده، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ * أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ" (الملك/20-21).

الرابع: قوله: "وَهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ" صيغتا مبالغة على وزن فعيل، تدلان على علم الله ﷻ المطلق اللامحدود، فهو عالم بما كان وما هو كائن وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف سيكون، وكل أقواله وأفعاله عن علم، وعلمه وسع الخلق والوجود والكون كله أجمع، وعلى حكمة الله ﷻ المطلقة، فهو سبحانه لا يأمر بأمرٍ ولا ينهى عن شيء ولا يصدر عنه تشريع أو عملٌ أو فعلٌ إلا عن حكمة بالغة، قال تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾(القمر/5).

الخامس: علاقة فاصلة الآية، أي: آخرها بأولها واضحةٌ كالشمس، فالله سبحانه شرع لنا كفارة ما عقدنا من الأيمان؛ لعلمه بوقوع ذلك منا ولحكمته في تشريع ما يصلح لنا.

٣ - قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ العَلِيمُ الخَبِيرُ﴾ (التَّحريم/3).

أ - التفسير الإجمالي:

(٩٤) انظر: محاسن التأويل، للقاسمي 856/16، وفتح القدير، للشوكاني 250/5.

"وَإِذْ" أي: واذكر حين ووقت "أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ" أي: ما أسره ﷺ إلى زوجه حفصة رضي الله عنها "حَدِيثًا" وهو: تحريم مارية، أو تحريم العسل، أو أن أبا بكر وأباها خليفتيه على أمته من بعده، واستكتمها ذلك "فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ" أي: أخبرت بالسر عائشة رضي الله عنها ﴿وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ﴾، أي: أطلع الله ﷻ نبيه ﷺ على إخبار حفصة سره لعائشة "عَرَّفَ بَعْضَهُ" أي: عرف حفصة بعض ما أخبرته لعائشة "وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ" أي: أعرض عن تعريف بعض ذلك "فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ" أي: فحينما أخبرها بما أفشت من سره لعائشة "قَالَتْ" حفصة "مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا"أي: من أخبرك بإفشائي سرك لعائشة "قَالَ" النبي ﷺ "نَبَّأَنِيَ" أي: أخبرني الله "العَلِيمُ" الذي لا تخفى عليه خافية من سرٍ وغيره "الخَبِيرُ" بكل شيء في السماء والأرض والوجود[٩٥].

ب - الدروس المستفادة:

الأول: إن السر أمانة يجب حفظه، ولا يجوز إفشائه بدون إذن صاحبه، ومفشي السر سَيُسأل عنه يوم القيامة، وقد كان ردُّ النبي ﷺ على حفصة رضي الله عنها عندما أفشت سره بأن طلقها لذلك، مما يدل على أهمية حفظ أسرار المؤمنين في الإسلام.

الثاني: الآية الكريمة تدل على أن الله ﷻ أعلم بأسرار العالمين، بينما الأنبياء عليهم السلام لا يعلمون الأسرار والغيب وما تكنه الصدور.

الثالث: قوله تعالى ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ يدل على أن العفو عند المقدرة من شِيم وأخلاق النبي ﷺ وهو قدوة حسنة لنا، قال تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيلَ﴾ (الحجر/85)، وقال: ﴿وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران/134)، وقال: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (الشُورى/43).

الرابع: قوله "العَلِيمُ الخَبِيرُ" فيه صيغتا مبالغة على وزن (فعيل)، و"العَلِيمُ" سبق الحديث عنه[٩٦]، "الخَبِيرُ" تدل على خبرة الله ﷻ المطلقة في كل شيء والتي تشمل كل شيء.

الخامس: علاقة فاصلة الآية واضحة كل الوضوح، فالله ختم الآية بـ "العَلِيمُ الخَبِيرُ" ليدل على علمه وخبرته فإفشاء حفصة سر النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها.

(٩٥) انظر: التفسير الكبير، للرازي 10/569-570، والتفسير المنير، للزحيلي 28/308.

(٩٦) انظر: الدرس الرابع المستفاد من الآية السابقة {التحريم: 2}.

٤ ـ قال تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (التَّحريم/4).

أ ـ التفسير الإجمالي:

"إِنْ تَتُوبَا" يا حفصة وعائشة "إِلَى اللهِ" توبة نصوحاً، وتوبتهما مما جرى منهما في قصة تحريم الجارية أو العسل "فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا" أي: مالت عن الصواب وانحرفت عما ينبغي لهن من الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه وألا يشققن عليه "وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ" أي: وإن تعاونتما عليه ﷺ بما يسوءه من إفراط الغيرة وإفشاء سره والمشقة عليه ونحو ذلك، ويستمر ذلك منكن[٩٧] "فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ" أي: يتولى نصره "وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ" أي: وكذلك ينصره جبريل وصالح المؤمنين كأبي بكر وعمر "وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ" أي: والملائكة بعد نصر الله ونصر جبريل والمؤمنين الصالحين "ظَهِيرٌ" أي: أعوان له وحراس وحفظة[٩٨].

ب ـ الدروس المستفادة:

الأول: وجوب التوبة إلى الله ﷻ من الذنب توبةً نصوحاً، وذلك بالإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم على العودة إليه، والتحلل من حقوق الآخرين إن كان متعلقاً بهم.

الثاني: الإثم والذنب يقع من الجميع حتى من آل البيت، والمعصومون هم الأنبياء عليهم صلوات الله.

الثالث: إن إثم وذنب الجوارح ناتج عن ميل القلب وانحرافه عن الحق، قال النبي ﷺ: "... ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"[٩٩]، فالأركان والجوارح ترجمان عملي للقلب.

الرابع: من يعادي أو يؤذي أو يحارب أو يظاهر ويعاون على النبي ﷺ فإن الله ﷻ خصمه وناصر نبيه ﷺ فضلاً عن جبريل وصالح المؤمنين والملائكة، قال تعالى: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللهِ نَصِيرًا﴾ (النساء/45).

(٩٧) انظر: تفسير القرآن الكريم، لابن كثير 381/4، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي 420/7-421.

(٩٨) انظر: التفسير المنير، للزحيلي 309/28.

(٩٩) صحيح البخاري، ك2 (الإيمان) ب39 (فضل من استبرأ لدينه) 23/1، ح (52).

٥ ـ قال تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ (التَّحريم/5).

أ ـ التفسير الإجمالي:

"عَسَى رَبُّهُ" أي: عسى رب محمد "إِنْ طَلَّقَكُنَّ" يا معشر أزواج محمد ﷺ "أَنْ يُبْدِلَهُ" منكن "أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ" في الدين والدنيا "مُسْلِمَاتٍ" أي: خاضعات لله بالطاعة "مُؤْمِنَاتٍ" يعني: مصدقات بالله ورسوله وسائر الإيمانيات "قَانِتَاتٍ" أي: مطيعات لله "تَائِبَاتٍ" أي: راجعات إلى ما يحبه الله منهن من طاعته عما يكرهه منهن "عَابِدَاتٍ" أي: متذللات لله بطاعته "سَائِحَاتٍ" أي: صائمات "ثَيِّبَاتٍ" أي: اللاتي ذهبت عذرتهن بزواج سابق "وَأَبْكَارًا" وهن اللاتي لم يُجامعن ويتزوجن من قبل(١٠٠).

ب ـ الدروس المستفادة:

الأول: إن الله ﷻ لا يحابي أحداً في دينه، حتى لو كن نساء أنبياء وبنات خيار الصحابة كعائشة وحفصة، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ (التَّحريم:10).

الثاني: إن الله ﷻ شرع الطلاق في حالاتٍ معينة، يتعذر فيها استمرار الزواج، وهو أبغض الحلال إلى الله ﷻ، قال النبي ﷺ: "ما أحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق"(١٠١)، وقال: "ليس منا من خبب امرأة(١٠٢) على زوجها أو عبداً على سيده"(١٠٣).

الثالث: إن أوصاف الزوجة الدينية مقدمة على صفاتها الدنيوية، ولذلك قدم في الآية الأوصاف الدينية ثم عقب بالصفات الدنيوية بقوله "ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا"، قال النبي ﷺ:

(١٠٠) انظر: جامع البيان، للطبري 28/163-165.

(١٠١) المستدرك، للحاكم، ك (الطلاق) 2/196، صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(١٠٢) (خبب امرأة) أي: خدعها وأفسدها على زوجها، انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير 2/4.

(١٠٣) المستدرك، للحاكم، ك (الطلاق) 2/196، صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

"تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك"(١٠٤).

الرابع: إن النساء الثيبات وهن المطلقات والأرامل لهن منزلة عظيمة عند الله ﷻ، فالله ﷻ ينظر إليهن برحمته لما ابتلين به، ولذلك قدر سبحانه أن تكون كل أزواج النبي ﷺ الثلاثة عشر أو أكثر ثيبات إلا عائشة رضي الله عنها، ولو طلق النبي ﷺ نسائه لزوجه ربه ﷺ "ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا"، بل قدم الثيبات على الأبكار؛ فليتأمل هذا دعاة حقوق المرأة!؟

٦ - قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا العِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ (الطَّلاق/1).

أ - التفسير الإجمالي:

"يَأَيُّهَا النَّبِيُّ" الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين "إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ" أي: أردتم طلاقهن "فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ" أي: فطلقوهن في طهرهن لم تجامعوهن فيه، ولا تطلقوهن بحيضهن لأنها لا تحتسب تلك الحيضة التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدة بسبب ذلك "وَأَحْصُوا العِدَّةَ" أي: واحفظوا تلك العدة لتراجعوا قبل فراغها "وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ" أي: وخافوا الله ﷻ في جميع أموركم، فأطيعوه في أمره ونهيه، وخافوه في حق الأزواج المطلقات "لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ" أي: لا تخرجوا من طلقتم من نسائكم مدة العدة، بل تلزم بيتها الذي طلقها بعلها وهي فيه حتى تنقضي عدتهن "وَلَا يَخْرُجْنَ" أي: لا يجوز لهن الخروج منه ولا يجوز إخراجهن منها "إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ" زنا "مُبَيِّنَةٍ" أي: بإقرار أو شهود، فيخرجن لإقامة الحد عليهن "وَتِلْكَ" أي: المذكورات "حُدُودُ اللهِ" أي: التي حدها لعباده وشرعها لهم، وأمرهم بطاعته بها فلا يعتدوها "وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ" أي: يعص الله بها بتجاوزه لها أو تقصيره فيها "فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ" أي: بخسها حقها بما أضاع من ثواب الاتباع، وبما جلب من سيئات العصيان "لَا تَدْرِي" يا محمد والمؤمنون

(١٠٤) صحيح البخاري، ك67 (النكاح) ب15 (الأكفاء في الدين) 561/2، ح (5090).

"لَعَلَّ اللهَ" بعد هذا التشريع بمكث المطلقة في بيتها "يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ" أي: بعد طلاقكن إياهن ومكثهن في بيوتهن "أَمْرًا" أي: رجعة[١٠٥].

ب - الدروس المستفادة:

الأول: الطلاق يقع من المؤمنين، وقد يقع من النبيين، بدليل الآية، وسبب نزولها أن النبي ﷺ قد طلق حفصة رضي الله عنها ثم راجعها.

الثاني: قوله " إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ" فاستخدم " إِذَا" التحقيقية، ولم يستخدم (إن) الاحتمالية؛ ليدلنا على أن الزواج ثابت بيقين، فلا يزول إلا بطلاق يقين محقق غير محتمل.

الثالث: إن الله ﷻ جعل الطلاق بيد الرجال لا النساء، لحكم جليلة منها: أن المرأة عاطفية قد تفعله لأتفه الأسباب، وأنها ناقصة عقلٍ ودين، وأن البعل هو من دفع الصداق ويؤدي النفقة فمن حقه أن تكون العصمة بيده، وأنه أصبر وأقدر على التحكم بنفسه منها خاصة عند الغضب، وهذا بخلاف ما شذ عن ذلك.

الرابع: الله ﷻ أمر أن يكون الطلاق في طهرٍ لم يمس المطلق فيه زوجه، وتمكث عنده حتى تحيض، ثم تطهر، وفي الطهر الثاني إن رغب أمسكها وراجعها، وإن رغب طلقها.

الخامس: ""وَأَحْصُوا العِدَّةَ" وإحصاء العدة، ضبطها إن كانت تحيض، أو بالأشهر إن لم تكن تحيض، وليست حاملاً، فإن في إحصائها، أداء لحق الله، وحق البعل المطلق، وحق من سيتزوجها بعد، وحقها في النفقة ونحوها... وهذا الأمر بإحصاء العدة، يتوجه للبعل، وللمرأة إن كانت مكلفة، وإلا فلوليها"[١٠٦].

السادس: ربط الله ﷻ بين الطلاق والعدة وإحصائها في بيت الزوج، وبين تقوى الله ﷻ وحدوده وعدم تجاوزها وظلم النفس بتجاوزها، ليبين لنا خطورة هذا الأمر وعواقبه عند الناس، وعظم شأنه عند الله ﷻ.

---

(١٠٥) انظر: جامع البيان، للطبري 129/28 وما بعدها، وتفسير الجلالين، للمحلي وللسيوطي ص/742، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي 406/7 وما بعدها.

(١٠٦) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي 407/7.

السابع: شرع الله ﷻ العدة والطلاق بها في بيت الزوجية لحكمٍ عظيمة (أولها): لعل المُطلق يحدث الله في قلبه رحمة ومودة وسكينة وعفواً فيراجع زوجه (وثانيها): لعل المُطلقة يهدي الله قلبها فتتقرب لطليقها وتتحنن إليه وتقلع عما يبغضه ويسخطه وتعتذر له، فيقبل ذلك ويراجعها (وثالثها): إن مدة العدة إن لم يراجعها يتبين بها حال الرحم، فإن حامل فابنه ولا يحل لها الزواج إلا بعد الوضع، وإن لم تحمل فيحل لها الزواج.

الثامن: إن من تقوى الله ﷻ، والتزام حدوده، وعدم ظلم النفس، أن يحفظ المؤمن حق طليقته في الطلاق والعدة والمراجعة، فلا يبخسها شيئاً من ذلك.

التاسع: قوله ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ يشير إلى إقامة الحد على الزاني المحصن، والذي عطله غالب المسلمين في هذا الزمن.

العاشر: قال الطبري: "... الفاحشة في هذا الموضع: المعصية، وذلك أن الفاحشة هي كل أمر قبيح تعدى في حده، فالزنى من ذلك، والسرقة والبذاء على الأحماء[١٠٧]، وخروجها متحولة عن منزلها الذي يلزمها أن تعتد فيه منه، وأي ذلك فعلت وهي في عدتها، فلبعلها إخراجها من بيتها ذلك، لإتيانها بالفاحشة التي ركبتها"[١٠٨].

الحادي عشر: الآية التالية لهذه الآية تكمل الحديث عما ذكر في الآية الأولى، وهو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا" (الطَّلاق/2).

(١٠٧) الأحماء: أقارب الزوج كالأب والأخ، والمفرد: الحَمُ.انظر: مختار الصحاح، للرازي، ص 153 والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير 448/1.

(١٠٨) جامع البيان 134/28.

المبحث الثالث: زينب زوج النبي ﷺ.

المطلب الأول: الآيات التي ذكرت زينب رضي الله عنها والملاحظات.

أولاً: الآيات التي ذكرت زينب:

ورد ذكر زينب رضي الله عنها في آيةٍ واحدة، حيث زوجها الله ﷻ بنفسه العلية لأحب خلقه إليه لرسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا﴾ (الأحزاب/37).

ثانياً: الملاحظات المستفادة من الآية:

١ - إن هذا الآية الكريمة نزلت في سورة الأحزاب المدنية، والسور المدنية تهتم بجانب التشريع.
٢ - إن هذه الآية الكريمة تشرفت بها زينب رضي الله عنها، فيكفي أنها ذكرت في القرآن الكريم أفضل كتاب سماوي على الإطلاق ولو في آيةٍ واحدة.
٣ - إن هذه الآية الكريمة لم يصرح فيها باسم زينب رضي الله عنها على طريقة القرآن الكريم.
٤ - في هذه الآية الكريمة زوج الله ﷻ بنفسه العلية زينب رضي الله عنها من رسوله محمد ﷺ وهذا خاصٌ بزينب رضي الله عنها لم يحدث في القرآن مثله لغيرها.
٥ - إن هذه الآية الكريمة أحق الله فيها الحق وأبطل الباطل، حيث أحل للرجل أن يتزوج من زوجة دعيّة بعد انقضاء عدّة طلاقها لها أو موته عنها، ومضى هذا الحلال إلى يوم القيامة.

المطلب الثاني: التعريف بزينب رضي الله عنها.

أولاً: نسب زينب رضي الله عنها:

هي: أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها زوج النبي ﷺ، العربية الأسدية من بني خزيمة، كان اسمها برّة، فسماها النبي ﷺ زينب، وتكنى بأم الحكم، وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ(١٠٩).

ثانياً: زواج زينب رضي الله عنها بالنبي ﷺ:

هاجرت زينب بنت جحش رضي الله عنها إلى المدينة وهي بنت بضع وثلاثين، وكانت امرأة جميلة ابنة عمة النبي ﷺ، فخطبها ﷺ على زيد بن حارثة وكانت أيم قريش، فلم ترضه، فلما أخبرها النبي ﷺ أنه يرضاه لها رضيت.

ثم بعد سنة وشهرين من زواجها تقريباً طلقها زيدٌ، فزوجها الله ﷻ بنبيه ﷺ بعد انقضاء عدتها، ونزل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا...﴾ وتزوجها ﷺ في السنة الثالثة للهجرة وكان ترتيبها السادس حيث تزوجها بعد: خديجة وسودة بنت زمعة وعائشة وأم سلمة وحفصة رضي الله عنهن(١١٠).

ثالثاً: فضائل ومناقب زينب رضي الله عنها:

١ - زينب رضي الله عنها من المهاجرات الأول إلى المدينة المنورة.
٢ - زينب رضي الله عنها سماها النبي ﷺ بهذا الاسم، بعد اسمها الأول برّة.
٣ - زينب رضي الله عنها هي أم المؤمنين زوج خير البرية محمد ﷺ.
٤ - زينب رضي الله عنها هي الوحيدة من نساء النبي ﷺ التي زوجها ربها ﷻ بالقرآن من نبيه ﷺ لذلك كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: "زوجني الله من رسوله وزوجكن آباؤكن وأقاربكن"(١١١).
٥ - زينب رضي الله عنها أكثر نساء النبي ﷺ صدقة، وكانت مأوى المساكين، قالت عائشة: قال رسول الله ﷺ: "أسرعكن لحاقاً بي، أطولكن يداً"، قالت: "فكن يتطاولن

(١٠٩) انظر: المستدرك، للحاكم 3/4، والبداية والنهاية، لابن كثير 104/7، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر 1849/4، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير 138/7.

(١١٠) انظر: المستدرك للحاكم 23/4-24، والبداية والنهاية، لابن كثير 104/7، والاستيعاب لابن عبد البر 849/4، وما بعدها، وأسد الغابة، لابن الأثير 138/7 وما بعدها.

(١١١) المستدرك، للحاكم 23/4.

أيتهن أطولُ يداً"، قالت: "فكانت أطولنا يداً زينب، لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق"[١١٢].

٦ - زينب رضي الله عنها كانت تسامى عائشة بنت الصديق في الجمال والحظوة، وكانت دينة ورعة عابدة كثيرة الصدقة[١١٣]، قالت عائشة عنها: "... وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ..."[١١٤].

٧ - زينب رضي الله عنها كانت تقول للنبي ﷺ: "أنا أعظم نسائك عليك حقاً، أنا خيرهن منكحاً وألزمهن ستراً وأقربهن رحماً، زوجنيك الرحمن ﷻ من فوق عرشه، وكان جبريل عليه السلام هو السفير بذلك، وأنا ابنة عمتك، وليس لك من نسائك قريبة غيري"[١١٥].

٨ - زينب رضي الله عنها قالت عنها عائشة رضي الله عنها: "ما رأيت امرأة قط خيراً في الدين، وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم أمانة وصدقة من زينب بنت جحش"[١١٦].

رابعاً: وفاة زينب رضي الله عنها:

توفيت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها زوج النبي ﷺ سنة عشرين للهجرة عن ثلاث وخمسين سنة، وصلى عليها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهي أول من صنع لها النعش حسب وصيتها، وأول من ضرب فسطاط على قبرها، ودفنت بالبقيع في يوم قائظ[١١٧]، وكانت أول نساء النبي ﷺ لحوقاً به بعد موته ﷺ للرواية السابقة، قال عثمان الجحشي: "ما تركت زينب بنت جحش ديناراً ولا درهماً كانت تتصدق بكل ما قدرت عليه، وكانت مأوى المساكين..."[١١٨].

المطلب الثالث: زينب رضي الله عنها وآية تزويجها.

أولاً: سبب نزول آية تزويج زينب رضي الله عنها:

(١١٢) صحيح مسلم، ك44 (فضائل الصحابة) ب17 (من فضائل زينب...) 1907/4، ح (2452).

(١١٣) البداية والنهاية، لابن كثير 104/7.

(١١٤) صحيح البخاري، ك 65 (تفسير القرآن) ب6 (لولا إذ سمعتموه...) 468/2، ح (4750).

(١١٥) المستدرك، للحاكم، ك(معرفة الصحابة) ب (ذكر زينب بنت جحش...) 25/4.

(١١٦) البداية والنهاية، لابن كثير 104/7.

(١١٧) انظر: المستدرك، للحاكم 24/4-25، والبداية والنهاية، لابن كثير 104/7.

(١١٨) المستدرك، للحاكم، ك (معرفة الصحابة) ب (ذكر زينب بنت جحش...) 24/4.

أجمع المفسرون على أن سبب نزول هذه الآية الكريمة زواج النبي ﷺ بزينب مطلقة مولاه زيد بن حارثة عن أمر ربه ﷻ، ورد في نزول هذه الآية الكريمة سبب واحدٌ بروايات كثير منها:

١ - أخرج البخاري بسنده "عن أنس بن مالك ﷺ أن هذه الآية ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة"(١١٩).

٢ - أخرج البخاري بسنده "عن أنس قال: "جاء زيدٌ يشكو فجعل النبي ﷺ يقول: "اتق الله وأمسك عليك زوجك"، قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: "زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات"، وعن ثابت ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ نزلت في شأن زينب وزيد بن حارثة"(١٢٠).

٣ - أخرج مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: "ولو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما أنزل عليه لكتم هذه الآية ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾"(١٢١).

(قلت): هذه بعض روايات كثيرة أخرجها البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردوية وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم والبيهقي وابن سعد وأبو يعلى والطبراني وابن جرير(١٢٢)، وفيما ذكر كفاية.

ثانياً: تفسير الآية والدروس المستفادة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا﴾ (الأحزاب:37).

أ - التفسير الإجمالي:

(١١٩) صحيح البخاري، ك65 (تفسير القرآن) ب6 (وتخفي في نفسك...) 479/1، ح(4787).

(١٢٠) صحيح البخاري، ك97 (التوحيد) ب21 (قل أي شيء...) 454/3-455، ح (7420).

(١٢١) صحيح مسلم، ك1 (الإيمان) ب77 (معنى قول الله 1/160 (...، ح (177).

(١٢٢) انظر: الدر المنثور، للسيوطي 611/6-612، وجامع البيان، للطبري 13/22، 14، وفتح القدير، للشوكاني 286/4.

"وَإِذْ" واذكر حين "تَقُولُ" أيها النبي "لِلَّذِي" أي: زيد بن حارثة "أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ" بالإسلام "وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ" بالإعتاق، وكان من سبى الجاهلية اشترته خديجة رضي الله عنها ووهبته للنبي ﷺ فكان مملوكاً عنده ثم أعتقه وتبناه ثم زوَّجه ابنة عمه زينب بنت جحش رضي الله عنها "أَمْسِكْ" يا زيد "عَلَيْكَ" في عصمتك "زَوْجَكَ" زينب "وَاتَّقِ اللهَ" في أمر طلاقها، حيث أستأذن النبي ﷺ في طلاقها "وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ" يا محمد "مَا اللهُ مُبْدِيهِ" أي: مظهره من إرادتك الزواج بها إذا طلقها زيد "وَتَخْشَى النَّاسَ" أي: تهابهم أن يقولوا تزوج محمد زوجة وحليلة ابنه بالتبني "وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ" وحده في كل شيء، وأن تجهر بما أوحاه إليك من أنك ستتزوجها بعد أن يطلقها زيد، ولا عليك من قول الناس "فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا" أي: من زينب "وَطَرًا" أي: حاجته من نكاحها ثم طلقها ثم انقضت عدتها "زَوَّجْنَاكَهَا" أي: جعلناها زوجةً لك، قال المفسرون: إن الذي تولى تزويجها هو الله جل وعلا، فدخل عليها النبي ﷺ بلا إذن ولا عقد ولا مهر ولا شهود، وأشبع المسلمين خبزاً ولحماً، وكان ذلك من خصوصياته ﷺ، ثم ذكر الله ﷻ الحكمة من ذلك الزواج فقال: " لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ" أي: ضيق ومشقة وتأثم "فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ" في تشريع حق تزوج مطلقات الأبناء بالتبني "إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا" أي: إذا قضوا حاجتهم من نكاحهن ولم يبق لهم حاجة فيهن ثم طلقوهن ثم انقضت عدتهن "وَكَانَ أَمْرُ اللهِ" لك ووحيه إليك بتزوج زينب "مَفْعُولًا" أي: مقدراً ومحتماً ومقضياً وكائناً[١٢٣].

ب - الدروس المستفادة:

الأول: قدم إنعام الله ﷻ على زيد بالإسلام على إنعام نبيه ﷺ عليه بالإعتاق، لأن الله ﷻ هو الأفضل، وهو صاحب الإنعام والفضل والمن المطلق، قال تعالى: "وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ" (النحل/53)؛ ولأن الإنعام بالإسلام أفضل من الإنعام بالإعتاق.

الثاني: الآية تشير إلى فضل النبي ﷺ الكبير على زيد بن حارثة، حيث أعتقه، وتبناه، ثم زوجه أنسب وأجمل نساء قريش ابنة عمته زينب بنت جحش.

(١٢٣) انظر: تفسير الجلالين، للمحلى والسيوطي، ص 558، 559، وصفوة التفاسير، للصابوني 527/3، 528.

الثالث: قوله: "وَاتَّقِ اللهَ" يدل على أن النبي ﷺ كان ينهى عن الطلاق، حتى إنه نهى زيداً من تطليق زينب مع علمه بأنه سيتزوجها، فنهى غيره أشد من باب أولى، قال ﷺ: "ما أحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق"(١٢٤).

الرابع: إن النبي ﷺ لم يطمع قبل ذلك بالزواج من ابنة عمته زينب ولم يرغب في ذلك، وإلا كان بوسعه أن يخطبها ويتزوجها، وسيجد منها وأهلها الترحيب المتناهي في ذلك، ولكن الله ﷻ صرفه عن ذلك للحكمة المذكورة في الآية الكريمة.

الخامس: إن الله ﷻ قدر للحكمة المذكورة أن يزوج بنفسه العلية وبقرآن يُتلى إلى يوم القيامة أمته زينب من رسوله محمد ﷺ، وبذلك أحل الله ذلك بالنص القرآني، والنص النبوي، والفعل النبوي، وذلك حتى لا يبقى شيء من رواسب الجاهلية في تحريم ذلك.

السادس: على المؤمن أن يقول أو يفعل ما يرضي الله، ويخشاه في ذلك، بغض النظر عن خشية الناس وإرضائهم فيما يخالف شرع الله ﷻ، قال تعالى: "... أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" (التوبة:13)، وقال عبادة بن الصامت ﷺ: "بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة... وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم"(١٢٥).

السابع: الصحابي الوحيد الذي ذكر وصرح باسمه في القرآن زيد ﷺ، وهذا لذات الحكمة كي لا يبقى أي شك أو تردد في حل الزواج من مطلقة الدعيّ - الابن بالتبني كزيد -.

الثامن: تشبث بعض أعداء الإسلام بروايات ضعيفة واهية في هذا المقام، منها: أن الرسول ﷺ رأى زينب وهي متزوجة بزيد بن حارثة فأحبها ووقعت في قلبه فقال: "سبحان مقلب القلوب" فسمعتها زينب فأخبرت بها زيداً، فأراد أن يطلقها، فقال له الرسول: "أمسك عليك زوجك" حتى نزل القرآن يعاتبه على إخفائه ذلك...(١٢٦).

والرد على ذلك من عدة وجوه: (أولها): أنها روايات باطلة لم يصح فيها شيء كما قال العلامة أبو بكر بن العربي، وقال عنها ابن كثير: ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير

(١٢٤) المستدرك، للحاكم، ك (الطلاب) 196/2، صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(١٢٥) صحيح مسلم، ك 33 (الإمارة) بـ8 (وجوب طاعة الأمراء...) 1470/3، ح (1709)، والسيرة النبوية، لابن هشام 476/2.

(١٢٦) صفوة التفاسير، للصابوني 527/2.

ههنا آثاراً عن بعض السلف ﷺ أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها[١٢٧]، (وثانيها): أن الذي أخفاه النبي ﷺ ولم يبده ليس حبه وعشقه لزينب رضي الله عنها وإنما ما أخبره به ربه ﷻ أنه مزوجه منها بعد طلاقها، يدل على ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين أنه قال: "أعلم الله نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد يشكوها إليه وقال له: اتق الله وأمسك عليك زوجك، عاتبه الله وقال له: أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مُبديه"[١٢٨]، (وثالثها): أن المؤمن الملتزم بدينه يتورع عن النساء العذارى الأبكار إلا بالزواج فضلاً عن النساء الثيبات المتزوجات في عصمة أزواجهن، فيغض نظره عنهن، ولا يسعى لتطليقهن للزواج بهن، فكيف برسول الله ﷺ الذي قال الله ﷻ فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾؟ (القلم/4)، (ورابعها): أن النبي ﷺ لو كان يحبها ويعشقها ويرغبها، وهو يعرفها منذ طفولتها فهي ابنة عمته يعرف نسبها وجمالها ودلالها، لتقدم إليها وخطبها من أهلها وتزوجها ولرحبوا به أتم وأكمل ترحيب، بدلاً من أن يخطبها على مولاه زيد ﷺ.

ويحسن بنا أن نختم في ميدان الدفاع عن النبي ﷺ بقوله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ (النور:16).

(١٢٧) تفسير القرآن العظيم 491/3.

(١٢٨) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير 491/3، وجامع البيان، للطبري 13/22، والدر المنثور، للسيوطي 615/6.

الخاتمة:

أولاً: أهم النتائج:

١ - لم يصرح القرآن باسم أي من أزواج النبي ﷺ ولا غيرهن، إلا مريم ابنة عمران، ليعلم الناس عامة والنصارى خاصة أن عيسى عليه السلام هو ابن مريم، وليس ابن الله كما يفترون.

٢ - إن عائشة رضي الله عنها هي البكر الوحيد والأصغر سناً التي تزوج رسول الله ﷺ، وعن أمر الله ﷻ.

٣ - عائشة رضي الله عنها هي أفضل نساء النبي ﷺ، بل أفضل نساء العالمين، وما تفضلت به عليهن هو علمها الواسع والكبير، فهي أكثر الصحابة رواية للحديث بعد أبي هريرة رضي الله عنه، وأعلم النساء على الإطلاق.

٤ - عائشة رضي الله عنها أحب نساء النبي ﷺ إليه على الإطلاق، وهي الزوجة الوحيدة التي كان جبريل عليه السلام ينزل على النبي ﷺ وهما في لحافٍ واحد.

٥ - قبض ﷺ في يوم عائشة رضي الله عنها وفي بيتها بين سحرها ونحرها ثم دفن في غرفتها وكان آخر ما لمس من الدنيا عائشة وريقها، وتلك من الموافقات التي خصت بها.

٦ - وصف الله ﷻ قذف عائشة بالإفك لاستحالته بحقها كونها زوج النبي ﷺ وسمعتها قبله يمنعان ذلك، وكون القذفة كانوا من المنافقين فلا يصدقون.

٧ - برأ الله ﷻ عائشة بالقرآن وهو صفة الله، وبرأ يوسف بشاهد من أهلها، وموسى بالحجر، ومريم بكلام ولدها، وتلك الثلاثة مخلوقة، ولا مقارنة بين الخالق والمخلوق.

٨ - إن طعن المنافقين بعائشة رضي الله عنها هو طعن بالنبي ﷺ أي طعن بقيادة الأمة، وهو طعن بدعوة النبي ﷺ أي: الإسلام، وهذا غرضهم.

٩ - إن حادث الإفك فيه خير من خمسة أوجه: تبرئة أم المؤمنين، وكرامة الله لها بإنزال الوحي في شأنها، والأجر الجزيل في الفرية عليها، وموعظة المؤمنين، وكشف للمنافقين والمفترين وإقامة الحد عليهم.

١٠ - المؤمنون والمؤمنات كنفس واحدة لا يجوز الظن السيء بأنفسهم اعتماداً على الإشاعات.

١١ - إن جريمة القذف بلا بينة من أربعة شهود أو إقرار ذنب عظيم وكبيرة من الكبائر.

١٢ ـ أجمع العلماء على أن من قذف عائشة بعد أن برأها الله ﷻ فهو كافر؛ لأنه معاند للقرآن وفي بقية أمهات المؤمنين قولان أصحهما أنهن كهي والله أعلم.
١٣ ـ إن التحريم والتحليل لله وحده لا شريك له.
١٤ ـ خاطب الله نبيه بالنبوة بقوله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ...﴾ (التحريم/1) إكراماً له، وإشعاراً بأن ما وقع منه من تحريم سريته والعسل لا يؤثر ولا يقدح في نبوته.
١٥ ـ من قال لزوجه أنت عليَّ حرام ولم ينوِ طلاقاً ولا ظهاراً فعليه كفارة يمين، ومن حرم على نفسه طعاماً أو شراباً أو شيئاً آخر لم يلزمه كفارة عند مالك والشافعي.
١٦ ـ لا يجوز للمسلم أن يمنع نفسه مما أحل الله ﷻ، أو يقحمها فيما حرم الله ﷻ إرضاءً لأزواجه فضلاً عن غيرهن، وإنما مرضاة الأزواج تكون فيما أحل الله وأباح، أو البعد عما نهى وحرم.
١٧ ـ السرّ أمانة يجب حفظه، ولا يجوز إفشائه بدون إذن صاحبه.
١٨ ـ إن العفو عند المقدرة من شيم النبي ﷺ، وهو قدوة لنا.
١٩ ـ إن الإثم والذنب يقع من الجميع حتى من آل البيت، والمعصومون هم الأنبياء عليهم السلام.
٢٠ ـ إن الآثام والذنوب التي تجترحها الجوارح، ناتجة من ميل القلب وانحرافه عن الحق، فالأركان والجوارح ترجمان عملي للقلب.
٢١ ـ إن الله ﷻ لا يحابي أحداً في دينه، حتى ولو كن نساء الأنبياء عليهم السلام.
٢٢ ـ إن الله ﷻ شرع الطلاق في حالات معينة، وهو أبغض الحلال إليه سبحانه.
٢٣ ـ إن أوصاف الزوجة الدينية مقدمة على أوصافها الدنيوية كما دلت الآية.
٢٤ ـ إن النساء الثيبات ينظر الله إليهن برحمته، ولذلك قدر أن تكون كل أزواج نبيه ﷺ ثيبات إلا عائشة رضي الله عنها.
٢٥ ـ الطلاق يقع من المؤمنين، وقد يقع من النبيين.
٢٦ ـ إن الله ﷻ جعل الطلاق بيد الرجال دون النساء لحكمٍ بليغة منها: أن البعل هو من دفع الصداق ويؤدي النفقة فمن حقه أن تكون العصمة بيده، ولأنه أقدر على التحكم بنفسه عند الغضب، بينما المرأة عاطفية ناقصة عقل ودين قد تفعله لأتفه الأسباب.
٢٧ ـ الله ﷻ أمر أن يكون الطلاق في طهرٍ لم يمس المُطلق فيه زوجه، وتمكث عنده حتى تحيض، ثم تطهر، وفي الطهر الثاني إن رغب أمسكها وراجعها، وإن رغب طلقها.

٢٨ ـ النبي ﷺ هو من سمى زينب رضي الله عنها بهذا الاسم، قالت عنها عائشة: "ما رأيت امرأة قط خيراً في الدين، وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم أمانة وصدقة من زينب بنت جحش"(١٢٩).

٢٩ ـ قدم القرآن إنعام الله ﷻ على زيد بالإسلام على إنعام نبيه ﷺ عليه بالإعتاق؛ لأنه سبحانه أفضل من نبيه؛ ولأن الإنعام بالإسلام أفضل من الإنعام بالإعتاق.

٣٠ ـ النبي ﷺ كان يكره الطلاق وينهى عنه، حتى إنه نهى زيداً عن تطليق زينب مع علمه بأنه سيتزوجها.

٣١ ـ إن الله ﷻ قدر أن يزوج نبيه ﷺ من زينب رضي الله عنها؛ ليقضي على رواسب الجاهلية من تحريم نكاح مطلقة المُتَبنى بالأمر والفعل.

٣٢ ـ الصحابي الوحيد الذي ذكر اسمه في القرآن هو زيد، والحكمة؛ كي لا يبقى أي شك أو تردد في حل الزواج من مطلقة الدعيّ كزيد.

٣٣ ـ الرد على أعداء الإسلام من المستشرقين وغيرهم في اتهامهم النبي ﷺ بأنه رأى زينب فأحبها ووقعت في قلبه، ثم قرر الزواج بها.

ثانياً: أهم التوصيات:

أوصي طلبة العلم عامة، والعلماء خاصة بما يلي:-

١ - كتابة بحث في الآيات القرآنية التي تتحدث عن نساء النبي ﷺ خاصة في سورة الأحزاب.

٢ - كتابة أبحاث مختصة في الأحاديث النبوية والآثار الصحيحة عن نساء النبي كل على حدة.

٣ - الاستفادة من سيرة نساء النبي ﷺ في حياتنا الدينية والدنيوية والاقتداء بهن.

٤ - على المسلم أن يدافع عن نساء النبي ﷺ ممن ينالهم بسوء من قِبل: المستشرقين، المنافقين، الشيعة، وليعلم أن ذلك واجب ديني عليه، وله ثواب عظيم عند الله بذلك.

٥ - على المسلمين عامة أن يسموا بناتهم بأسماء نساء النبي ﷺ فهن خير نساء أمة محمد ﷺ ومنهن ما هن خير نساء العالمين كعائشة وخديجة رضي الله عنهما.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(١٢٩) البداية والنهاية، لابن كثير 104/7.

المراجع:

- القرآن الكريم.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب العزيز، للقاضي أبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، صحح حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن، ط1، 1419هـ-1999م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، ط2، 1985م، دار مكتبة الهلال، بيروت.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ليوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق : علي محمد البجاوي، ط1412هـ، دار الجيل، بيروت، لبنان.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، لعز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، تحقيق : عادل أحمد الرفاعي، ط1417هـ-1996م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- بحر العلوم، لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، تحقيق : الشيخ علي محمد معوض وآخران، ط1، 1413هـ-1993م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير، ط1398هـ-1978م، دار الفكر.
- التسهيل لعلوم التنزيل، لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي، دار الفكر.
- تفسير الإمامين الجليلين، لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، مطبعة الأنوار المحمدية، القاهرة.
- تفسير القرآن العظيم للحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير، دار المعرفة، بيروت، لبنان ط1388هـ-1969م.
- التفسير الكبير، لفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1417هـ-1997م
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، للأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي، ط1، 1418هـ-1998م، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق محمد النجار، ط 1404هـ، الرياض، السعودية.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن حرير الطبري، مطبعة الحلبي، مصر، ط3 1388هـ-1968م.
- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق : محمد الحفناوي ومحمد عثمان دار الحديث، القاهرة، ط1423هـ-2002م.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للإمام عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي ط1 (1403هـ-1983م) دار الفكر.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، ط1، 1415هـ-1994م، دار الكتب العلمية، بيروت.
- سنن أبي داود، للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، الأزدي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط دار الفكر.
- سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن سورة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ-1987م.
- شرح العقيدة الطحاوية لعلي بن محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي، تحقيق : جماعة من العلماء، خرج أحاديثه : ناصر الدين الألباني، ط8، 1404هـ-1984م، المكتب الإسلامي، بيروت.
- شرح النووي على صحيح مسلم، للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط3، 1389هـ-1978م.
- صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، اعتنى به : محمود ابن الجميل، مكتبة الصفا، القاهرة، ط1، 1423هـ-2003م.
- صحيح الجامع الصغير، لمحمد ناصر الدين الألباني، ط1، 1388هـ، المكتب الإسلامي.

- صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين النيسابوري، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.
- صفوة التفاسير، لمحمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط4، 1402هـ-1981م.
- الطبقات الكبرى، لمحمد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري، دار صادر، بيروت.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1403هـ-1983م.
- لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور، ط1422هـ-2002م، دار الحديث، القاهرة.
- محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسمي، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار إحياء الكتب العربية.
- مختار الصحاح، للإمام محمد بن أبي بكر الرازي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1393هـ-1973م.
- المستدرك على الصحيحين في الحديث، للحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري، وفي ذيله تلخيص المستدرك، للحافظ شمس الدين الذهبي، ط1398هـ-1978م، دار الفكر، بيروت.
- مسند أبي يعلى، لأحمد بن علي التميمي، تحقيق : حسين أسد، ط1، 1404هـ-1984م، دار المأمون للتراث، دمشق.
- مصنف ابن أبي شيبة، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي، تحقيق : محمد عوامة، ط دار القبلة.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، ط3، دار الفكر.
- النكت والعيون، لأبي الحسن بن محمد الماوردي البصري، ط1، 1412هـ-1992م دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد الدين بن محمد الجزري، ابن الأثير، تحقيق : محمود الطناحي، وطاهر الراوي، دار الفكر، بيروت، ط2، 1399هـ-1979م.

الفهرس:

ملخص البحث: 106
ABSTRACT 106
المقدمة: 107
المبحث الأول: (عائشة زوج النبي ﷺ). 109
المطلب الأول: الآيات التي ذكرت عائشة رضي الله عنها والملاحظات. 109
المطلب الثاني: التعريف بعائشة رضي الله عنها. 110
المطلب الثالث: عائشة رضي الله عنها وحادث الإفك. 114
المبحث الثاني: حفصة زوج النبي ﷺ. 126
المطلب الأول: الآيات التي ذكرت حفصة رضي الله عنها والملاحظات. 126
المطلب الثاني: التعريف بحفصة رضي الله عنها. 127
المطلب الثالث: حفصة رضي الله عنها وآيات التحريم وآية الطلاق. 128
المبحث الثالث: زينب زوج النبي ﷺ. 142
المطلب الأول: الآيات التي ذكرت زينب رضي الله عنها والملاحظات. 142
المطلب الثاني: التعريف بزينب رضي الله عنها. 142
المطلب الثالث: زينب رضي الله عنها وآية تزويجها. 144
الخاتمة: 149
المراجع: 152